

مظاهر النشاط الاقتصادي في مواسم الحج في العصر الأموي (٤١ - ١٣٢هـ / ٦٦١ - ٧٥٠م)

إبراهيم عبدالعزيز الجميح

أستاذ مساعد - قسم التاريخ - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة الملك عبدالعزيز
جدة - المملكة العربية السعودية

المستخلص . ما أثر إباحة التجارة للمسلم وهو يؤدي فريضة الحج ؟ ومتى كانت هذه الإباحة ؟ وما هي السلع التجارية السائدة والمتداولة في مواسم الحج ؟ وكيف كانت الأسواق ، بتنوعها وتعددتها ، تمثل النشاط التجاري ؟ وما الذي كان يعرض فيها ؟ هل وجدت أسواق جديدة بعد الإسلام ؟ وما الذي طرأ على الأسواق القديمة ؟ ، وما هو دور الحج في ذلك ؟ .

ثم ماهي المهن والحرف السائدة في مواسم الحج ؟ وهل كان للحج دور في اتعاشها ؟ . وكيف أوجدت فريضة الحج أنماطا جديدة من المعاملات المالية ؟ وماذا عن وضع العقار في مواسم الحج ؟ .

وأخيرا ، ماهو دور الأمويين في إنعاش الحياة الاقتصادية ؟ وفيما يمثل هذا الدور ؟ .

هذه الدراسة هي محاولة للإجابة على هذه الأسئلة ، وذلك من خلال إلقاء الضوء على النشاط الاقتصادي ، بشقيه التجاري والمالي ، السائد في مواسم الحج في العصر الأموي .

مقدمة

تعددت الدراسات التي تعني بأهمية الحج الدينية والروحية . ولأغرو في ذلك فالحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام وتأتي عبادة ، وهو فريضة لمن استطاع ذلك . يقول تعالى : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى

الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً^(١). وقد شملت هذه الدراسات التي تعني بأهمية الحج الدينية تعاليم الحج ومناسكه وطرقه ومواقبه^(٢).

وبالرغم من قيمة هذه الدراسات التي تبرز مكانة الحج وأهميته لدى المسلمين ، إلا أن مواسم الحج في العصر الأموي وما كانت تعج به من نشاط اقتصادي ، وتجاري ، ومالي ، لم تعط الأهمية ذاتها^(٣). ويبدو أن ذلك راجع لندرة المعلومات المتاحة في المصادر التاريخية عن النواحي الاقتصادية في مواسم الحج في العصر الأموي ، وتشتت هذه المعلومات في العديد والمتنوع من المصادر الإسلامية

(١) سورة آل عمران ، الآية ٩٧ .

(٢) انظر ، على سبيل المثال لا الحصر ، الدراسات التالية والتي تشير إلى أهمية الحج الدينية ، وطرقه ، ومواقبه : عبد الرزاق نوفل ، فريضة الحج ، ط ١ ، القاهرة : دار الشروق ، ١٩٨٣ . نور الدين عتر ، الحج والعمرة في الفقه الإسلامي ، حلب : المكتبة العربية ، ١٩٦٩ . سيد عبد المجيد بكر ، الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ، ط ١ ، جدة : تهامة للنشر ، ١٩٨١ . سليمان عبد الغني مالكي ، «طريق ركب الحج العراقي من الكوفة إلى مكة من الفتح الإسلامي حتى سقوط بغداد» ، مجلة الدارة ، سنة ٩ ، عدد ٢ ، الرياض : المحرم ١٤٠٤هـ / أكتوبر ١٩٨٣ م . ص ٨ - ٢٧ . سليمان عبد الغني مالكي «طريق حجاج الشام ومصر منذ الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن السابع الهجري» ، مجلة الدارة ، سنة ١٠ عدد ٥ ، الرياض ، شوال ١٤٠٤هـ / يونيو ١٩٨٤ م ، ص ٨ - ٢١ .

(٣) أنظر على سبيل المثال لا الحصر ، الدراسات التالية عن النواحي الاقتصادية في العصر الأموي : عبد الله بن محمد السيف ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي ، ط ٣ ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٣ . محمد حسين الزبيدي ، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الأول الهجري ، بغداد : دن . ١٩٧٠ . عبدالعزيز الدوري ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ط ٣ ، بيروت : دار الطليعة ، ١٩٨٠ . الحبيب الجنتحاني ، دراسات في التاريخ الاقتصادي الاجتماعي للمغرب الإسلامي ، ط ٢ ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ١٩٨٦ . صالح محمد فياض أبو دياك ، «السياسة المالية للدولة الأموية» . مجلة الباحث ، سنة ١٠ ، عدد ٥١ ، بيروت ، ١٩٨٨ ، ص ١٠ - ٣٢ . صلاح حسين العبيدي ، «المنسوجات والملابس في الجزيرة العربية والخليج العربي في القرنين الأول والثاني الهجري» ، المؤرخ العربي ، سنة ١٦ ، عدد ٤٣ ، بغداد ، ص ١٨٥ - ١٨٨ . هذا ، وقد لاحظ برنارد لويس إغفال الدراسات للنواحي التجارية عن الحج ، انظر :

B. lewis, ' «Hadjdj», Encyclopedia of Islam, New ed. Leiden Brill London: Luzac, 1971, Vol. 111, p. 38.

وقد صدر حديثاً سجل يوثق للحج عن طريق تصوير الصفحات التي تتعلق بالحج من المصادر العربية والأجنبية قديمها وحديثها . انظر :

Record of the Hajj: A Documentary History of Pilgrimage to Mecca, Archive ed., British Library, Printed by Antony Rowe Ltd., Chippenham, 1993, Vol. 2.

الأخرى ، ككتب الحديث والطبقات والفقه والتفسير والأدب ، والرحلات . ومن هنا جاءت هذه الدراسة لتحاول أن تملأ فجوة في التاريخ الأموي ، وذلك بإلقاء الضوء على تنوع الأنشطة الاقتصادية السائدة في مواسم الحج في العصر الأموي . وهي بذلك تحاول أن تبين بأن مواسم الحج لم تكن مقصورة على الجانب الديني فقط ، والمتمثل في أداء فريضة الحج الدينية ، بل صاحب ذلك إلتماس بعض الحجاج - بالإضافة إلى تأدية هذه الفريضة الدينية - أنواعا عديدة من المنفعة المادية ، خصوصا وأن الإسلام أباح التجارة في مواسم الحج . كما صاحب تأدية هذه الفريضة ، وما ترتب عليها من إجتماع المسلمين في بقعة واحدة وزمن واحد ، تنوع الأنشطة المالية والتجارية ، الذي تمثل في تعدد الأسواق ، وازدهار البيع والشراء فيها ، ووفرة وتنوع السلع المتاحة لحجاج بيت الله الحرام في هذه الأسواق . كما ترتب على قدوم الحجاج إلى مكة والمدينة لتأدية فريضة الحج ، وزيارة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، إنتعاش إقتصادي تمثل في إنتعاش العقار وازدياد الطلب على تأجير الدور والخوانيت ، ورواج مهنة كراء الإبل لحجاج بيت الله الحرام ، سواء للقادمين إلى مكة لتأدية فريضة الحج أو للمغادرين منها .

وقد كان لفريضة الحج وما يتعلق بها من مناسك دور في الحياة الاقتصادية العامة ، حيث ارتبطت هذه الفريضة بأنواع عديدة من الأنشطة المالية والمهنية . كما ازداد التبادل التجاري بين المسلمين خلال تأديتهم لهذه الفريضة ، وذلك بما يجلبونه معهم للتجارة ، أو بما يتناعون من أسواق الحجاز خلال هذه المواسم العامرة . ولا يُنسى في هذه الدراسة ، دور الأمويين في إنعاش الحياة الاقتصادية في مواسم الحج ، وذلك من خلال إنفاقهم على الحجيج ومرافق الحج ، وسياستهم الحازمة في تأمين سلامة الحجيج وقوافل الحجاج .

إباحة التجارة في مواسم الحج

كان لإباحة الإسلام للحاج أن يتاجر ويتكسب وهو يؤدي فريضة الحج الأثر الكبير في إنعاش الحياة الاقتصادية في مواسم الحج . وتشير بعض الآيات القرآنية إلى هذه الإباحة ، حيث يقول تعالى في محكم كتابه : ﴿وَأُذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ . فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾^(٤) . ويقول تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾^(٥) .

(٤) سورة الحج ، الآيتان ٢٧ - ٢٨ .

(٥) سورة البقرة ، الآية ١٩٨ .

لقد فسرت المنافع وابتغاء الفضل في الآيات السابقة بإباحة التجارة في موسم الحج^(٦)، وهو الوقت الذي يجتمع فيه المسلمون كل سنة لأداء فريضة الحج ومناسكها. أما المنافع المذكورة في قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ فإن المقصود بها - كما ذكر المفسرون - التجارة ومنافع الدنيا، وقيل بأنها تعني الأسواق وما فيها من بيع وشراء، كما قيل بأنها تعني الأجر في الآخرة، والتجارة وما ينتج عنها من ربح في الدنيا^(٧). أما إبتغاء الفضل في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(٨) فإنه يعني إلتماس رزق الله بالتجارة، والانتفاع بها والربح منها، وأنه لا حرج ولا إثم على المسلمين في الشراء والبيع قبل الإحرام وبعده^(٩). ولهذا فقد اعتبر الزمخشري في تفسيره أن في فريضة الحج منافع دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات^(١٠).

إن إباحة الإسلام للتجارة في مواسم الحج رفع عن المسلمين التأثم والتحرج من البيع والشراء وهم محرمون، وأجاز لمن امتنع عن التجارة وهو محرم أن يزاولها بشرط أن لا تشغله عن العبادة خلال تأديته لفريضة الحج^(١١). وبالإضافة إلى إباحة الإسلام للتجارة، فقد كان لتعاليم الإسلام المتعلقة

(٦) سمي الحج موسمًا لأنه معلّم يجتمع فيه الناس. انظر: أبو الفضل محمد بن مكرم، ابن منظور، لسان العرب، بيروت: دار الفكر ودار صادر، د.ت، ج ١٢، ص ٦٣٦ - ٦٣٧.

(٧) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، بيروت: دار الفكر، ١٩٨٨، ج ١٧، ص ١٤٦ - ١٤٧. أبو عبدالله محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ط ٤، القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٩٦٧، ج ١٢، ص ٤١.

(٨) قرأ عبدالله بن عباس الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ بإضافة (في مواسم الحج). انظر: الطبري، جامع البيان، ج ٢، ص ٢٨٣. أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، ط ١، حمص: دار الحديث، ١٩٧٠، ج ٢، ص ٣٥١. أحمد بن عبدالله بن محمد بن أبي بكر الطبري، القرى لقاصد أم القرى، ت. مصطفى السقا، ط ٣، القاهرة: دار الفكر، ١٩٨٣، ص ٧٩. السيد سابق، فقه السنة، بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت، ج ١، ص ٦٤١. وقد ذكر ابن حجر في تعليقه على هذه الإضافة بأن حكم القراءة هذه عند الأئمة حكم التفسير. وهي من القراءات الشاذة. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري: شرح صحيح البخاري، بيروت: دار المعرفة، د.ت، ج ٣، ص ٥٩٥.

(٩) الطبري، جامع البيان، ج ٢، ص ٢٨٢ - ٢٨٣. محمود بن عمر الزمخشري، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعبون الأقاويل في وجوه التأويل. ت. مصطفى حسين أحمد، القاهرة: دار الريان للتراث، ١٩٨٧، ج ١، ص ٢٤٥. القرطبي، أحكام القرآن، ج ٢، ص ٤١٣ - ٤١٤.

(١٠) الزمخشري، الكشف، ج ٣، ص ١٥٢.

(١١) الطبري، جامع البيان، ج ٢، ص ٢٨٢ - ٢٨٤. وقد أجاز الإسلام حج من يكره ويؤجر الدواب إذا أدى جميع مناسك الحج. انظر: الطبري، نفس المصدر، ج ٢، ص ٢٨٥. الزمخشري، الكشف، ج ١، ص ٢٤٥.

بحرمة أشهر الحج دور في إشاعة الأمن والاستقرار في مكة المكرمة وما حولها خلال مواسم الحج . وكان هذا سبباً كافياً لازدهار التجارة وانتعاش الأنشطة الاقتصادية عامة . يقول تعالى : ﴿ الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ﴾ الآية (١٢) . ويقول تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً ﴾ الآية (١٣) . ولا شك أن أشهر الحج الحرام وهي ، شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة (١٤) - وهي أيام اجتماع المسلمين لتأدية مناسك الحج والعمرة - كان يتوافر فيها أكبر قدر متاح من الأمن والسلام اللازمين لتأدية هذه الفريضة الدينية وما يصاحبها من منفعة دنيوية متمثلة في التجارة . وهكذا فقد ترتب على إباحة الإسلام للتجارة وتشديده على حرمة أشهر الحج أن أصبحت مواسم الحج الدينية مواسم أيضاً للأسواق التجارية .

الأسواق وأنواعها

ترتب على قدوم الآلاف (١٥) من الحجاج سنوياً إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج أن تعددت

(١٢) سورة البقرة ، الآية ١٩٧ .

(١٣) سورة المائدة ، الآية ٢ . وتشير آيات عديدة في القرآن الكريم إلى حرمة مكة المكرمة والأشهر الحرم . انظر : سورة الحج ، الآية ٢٥ . سورة النمل ، الآية ٩١ . سورة التوبة ، الآيتين ٥ ، ٣٦ . سورة البقرة ، الآيات ١٤٤ ، ١٤٩ ، ١٩٨ . انظر أيضاً : محمد فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، اسطنبول : المكتبة الإسلامية ، ١٩٨٤ ، ص ص ١٩٤ ، ١٩٨ .

(١٤) حول أشهر الحج الحرم ، انظر : الطبري ، جامع البيان ، ج ٢ ، ص ٢٥٧ . الزمخشري ، الكشاف ، ج ١ ، ص ص ٢٤٢ - ٢٤٣ . القرطبي ، أحكام القرآن ، ج ٢ ، ص ٤٠٥ . ابن حجر ، فتح الباري ، ج ٣ ، ص ص ٤١٩ - ٤٩١ . الطبري ، القرى ، ص ص ٨٩ - ٩٠ . أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية ، شرح العمدة في بيان مناسك الحج والعمرة ، ت . صالح بن محمد الحسن ، ط ١ ، الرياض : مكتبة الحرمين ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م ، ج ١ ، ص ص ٣٧٧ - ٣٨٤ .

(١٥) لاتفيدنا المصادر المتاحة بإحصائية عن عدد الحجاج في مواسم الحج في العصر الأموي ، ولكن يبدو أن أعدادهم كانت هائلة وتقدر بعشرات الآلاف ، فإذا كان قد وقف مع الرسول (ص) في حجة الوداع حوالي أربعون ألفاً ، فما بالك بأعداد الحجيج في العصر الأموي وقد انتشر الإسلام واعتنقه الكثير من الأقوام والشعوب .

وتجدر الملاحظة هنا بأن الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ هـ) ، عندما حج في خلافته ورأى الحجاج بالموسم تعجب من هول أعدادهم التي لا يحصى إلا الله ولا يسع رزقهم غيره . عن حجة الوداع ، أنظر أبو الفداء إسماعيل بن كثير ، الفصول في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ت . محمد العيد الخطراوي . ومحيي الدين مستو ، ط ٣ ، دمشق : مؤسسة علوم القرآن ، ١٤٠٣ هـ ، ص ص

الأسواق وتنوعت . وقد تميزت بعض الأسواق بأهميتها كأسواق موسمية ، كعكاظ^(١٦) ومجنة^(١٧) وذو الحجاز^(١٨) . حيث كانت تعقد في مواسم الحج ، وكان الغرض منها المتاجرة في السلع والبضائع المختلفة ، سواء ما كان منها محلياً أو مستورداً . وكان يتوافد على هذه الأسواق كل من يرغب في شراء أو بيع أية سلعة من السلع المعروضة والمتداولة . ومن هنا سميت هذه الأسواق بالمواسم لأنها معلم لاجتماع الناس فيها حيث البيع والشراء^(١٩) .

وقد ظلت هذه الأسواق مستمرة من عصر ما قبل الإسلام حتى العصر الأموي وما بعده ، ثم تلاشت أهميتها كما سنرى . وكانت تقام في أشهر الحج ، فسوق عكاظ كانت تعقد في بداية شهر ذي القعدة ، وتستمر عشرين يوماً ، ثم ينتقل الحجاج بعد ذلك إلى سوق مجنة فيمضون فيها عشرة أيام ، وفي بداية شهر ذي الحجة ينتقلون إلى ذي الحجاز فيمضون فيها ثمانية أيام^(٢٠) .

إن أيام هذه الأسواق كانت عامرة بالحياة التجارية من بيع وشراء ومبادلة ، حتى يوم التروية

٢١٦ - ٢١٩ . وعن حجة سليمان بن عبد الملك ، أنظر : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (حوادث ووفيات ٨١ - ١٠٠ هـ) ، ت. عمر عبد السلام تدمري ، ط١ بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٩٨٨ ، ص ٣٧٩ ، ولا بد من الإشارة هنا بأن محقق كتاب الذهبي لم يقسمه إلى أجزاء بل إلى سنوات الحوادث والوفيات التي اعتمدها الذهبي ، وقد رأينا اتباع نهج المحقق في الإشارة إلى السنوات ، وذلك ليسهل الرجوع إلى الكتاب . انظر أيضاً : أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ط٥ ، بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٩٨٧ ، ج ٥ ، ص ٢٨٨ .

(١٦) عكاظ : هي من أشهر وأعظم أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ، وتقع بين نخلة والطائف . انظر : ياقوت بن عبد الله الحموي ، معجم البلدان ، بيروت : دار صادر ، ١٩٧٧ ، ج ٤ ، ص ١٤٢ . انظر أيضاً : علي بن جعفر بن محمد بن حبيب ، الخبر ، ت. ت. ايلزة يتختن ستر ، بيروت : المكتبة التجارية للطباعة والنشر ، د.ت ، ص ٢٦٧ .

(١٧) مجنة : سوق من أسواق العرب المشهورة ، تقع قرب جبل بأسفل مكة وهي بالقرب من عرفة وعلى أميال من مكة . انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ص ٥٨ - ٥٩ .

(١٨) ذو الحجاز : سوق من أسواق العرب ويقع خلف عرفة . انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٢١ .

(١٩) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، ج ١٢ ، ص ص ٦١٦ - ٦٣٧ .

(٢٠) أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرق ، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، ت. رشدي ملحس ، ط٣ ، مكة المكرمة : مطابع دار الثقافة ، ١٩٧٨ ، ج ١ ، ص ١٨٨ . ابن حبيب ، الخبر ، ص ٢٦٧ . أبو القاسم علي بن الحسين بن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق الكبير ، ت. عبد القادر بدران ، بيروت : دار المسيرة ، د.ت ، ج ٤ ، ص ص ٤٢٧ - ٤٢٨ . أبو الطيب محمد بن أحمد الحسيني القاسمي ، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، القاهرة : مطبعة السنة المحمدية ، د.ت ، ج ١ ، ص ٢١٣ .

وهو اليوم الثامن من ذي الحجة^(٢١) . والملاحظ أن العرب قبل الإسلام ، وكذلك المسلمون في بداية الإسلام ، كانوا لا يتاجرون في يوم عرفة ولا في أيام منى حيث كان يوم التروية آخر أيام البيع والشراء عندهم^(٢٢) .

وبعد ظهور الإسلام طرأ تغير كبير على مكانة الأسواق السابقة . إذ ترتب على إباحة الإسلام للمسلمين بالتجارة في أيام الحج ، ظهور أسواق موسمية جديدة في مكة ومنى وعرفة . وبالإضافة إلى ذلك ، كان لبعض المواقيت التي حددها الإسلام للحجاج أهمية تجارية ، حيث أصبحت أسواق رائجة يتوافد عليها ويجتمع بها الحجاج قبل توجههم إلى مكة لأداء مناسك الحج والعمرة . ومن المرجح أن ظهور هذه الأسواق الجديدة نتج عنه تضائل دور الأسواق القديمة كعكاظ ومجنة وذو المجاز .

ولكن ما هي الأسباب التي أدت إلى تدهور الأسواق القديمة ؟ يمكن إيجاز هذه الأسباب في التالي :
١ - إن إباحة الإسلام للتجارة خلال مواسم الحج أوجد أسواقاً جديدة في مكة ومنى وعرفات ، نافست الأسواق القديمة تجارياً ، وأدت بالتالي إلى الإستهانة عنها .

٢ - إن انتشار الإسلام وإقامة الحدود على العابثين بأمن الناس وأملاكهم ، بالإضافة إلى ما أوجده الإسلام من تحديد مواقيت معينة للحجاج ، أدى إلى تضائل أهمية أسواق العرب القديمة ، فلم يعد يقصدها الحجاج كسباً للأشهر الحرم كما كانوا يفعلون قبل الإسلام ، بل أصبحوا بعد الإسلام يتجهون رأساً إلى المواقيت المعينة لأصحاب كل مصر وإقليم ، ثم يتجهون بعد ذلك إلى مكة لتأدية مناسك الحج والعمرة^(٢٣) ، لهذا فقدت السوق القديمة مكانتها الدينية والجغرافية وبالتالي التجارية .

٢ - إن تدهور الأحوال السياسية في أواخر العصر الأموي كان له دور في تدني أهمية

(٢١) يوم التروية هو اليوم الثامن قبل الوقوف بعرفة وقد سُمي يوم التروية لأن الحجاج كانوا يترَوون فيه من الماء ، حيث يسقون إبلهم إستعداداً للإنتقال إلى عرفة التي لم يكن بها ماء . أنظر : أبو عبدالله محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي ، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه ، ت. عبدالملك بن عبدالله بن دهيش ، ط ١ ، مكة المكرمة : مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، ج ٣ ، ص ١٨٩ . ابن حجر ، فتح الباري ، ج ٣ ، ص ٥٠٧ - ٥٠٨ . ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٤ ، ص ٣٤٧ . عتر ، الحج والعمرة ، ص ٢١١ .

(٢٢) الأزرقي ، أخبار مكة ، ج ١ ، ص ١٨٨ - ١٨٩ . الفاسي ، العقد الثمين ، ج ١ ، ص ٢١٣ - ٢١٤ .

(٢٣) جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط ٢ ، بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٨ ، ج ٧ ، ص ٣٨٥ .

الأسواق القديمة . فقد أهملت سوق عكاظ بعد قدوم الخوارج بقيادة أبي حمزة الخارجي^(٢٤) إلى مكة سنة ١٢٩ هـ ، حيث قام بنهب هذه الأسواق فخاف الناس من الذهاب إليها ، فتوقف النشاط التجاري فيها^(٢٥) . ثم تركزت بعد ذلك سوقا مجنة وذو المجاز واكتفى الناس بأسواق مكة ومنى وعرفة^(٢٦) . وبالرغم من استمرار الأسواق القديمة بعد الإسلام ، فالمرجح أنها فقدت مكانتها السابقة وخصوصاً منذ بداية العصر الأموي ، فالمعلومات المتاحة عنها نادرة وتكاد تكون معدومة .

ولقد ترتب على أهمية الحجاز الدينية أهمية اقتصادية ، فأصبحت بعض مدنه كمكة والمدينة أسواقاً عامرة على مدار السنة ، يأتي إليها من أراد الحج أو العمرة ، أو من جمع بين الحج والعمرة والزياره . كما كان يقصدها - في نفس الوقت - من أراد التجارة والتكسب منها وبالتالي انتعشت الحياة الاقتصادية في مكة والمدينة وأصبحت أسواقها عامرة بالتجارة لقدوم الآلاف من الحجاج والزائرين سنوياً^(٢٧) .

أما موانئ الحجاز كجدة والجار^(٢٨) فقد أصبحت أسواقاً مزدهرة يتوافد عليها التجار ، ويجد

(٢٤) أبو حمزة الخارجي : هو المختار بن عوف الأزدي أحد زعماء الخوارج الأباضية ، قدم لمكة في موسم حج عام ١٢٩ هـ فأخاف الحجاج وأرهبهم ، وقد قتل سنة ١٣٠ هـ . انظر : خليفة بن خياط العصفري ، تاريخ خليفة بن خياط ، ت . أكرم ضياء العمري ، ط ١ ، الرياض : دار طيبة ، ١٩٨٤ ، ص ص ٣٨٤ - ٣٩٥ . أحمد بن جعفر بن واضح العقبولي ، تاريخ العقبولي ، بيروت : دار صادر ، د.ت ، ج ٢ ، ص ص ٣٣٩ - ٣٤٠ .

(٢٥) الأزرق ، أخبار مكة ، ج ١ ، ص ١٩٠ . الفاسي ، العقد الثمين ، ج ١ ، ص ص ٢١٣ - ٢١٣ . جواد علي ، المفصل ، ج ٧ ، ص ٣٨٠ .

(٢٦) الأزرق ، أخبار مكة ، ج ١ ، ص ١٩٠ . ويذكر الأزرق أن سوق ذي المجاز قد خربت في العصر العباسي سنة ١٩٧ هـ . انظر : نفس المصدر ، ص ١٩٢ . انظر أيضاً : عبد القادر بن محمد بن عبد القادر الجزيري ، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، ت . حمد الجاسر ، الرياض : دار اليمامة ، ١٤١٣ هـ / ١٩٨٣ م ، ج ١ ، ص ١٨٧ .

(٢٧) يشير المقدسي إلى رواج التجارة وأهميتها بإقليم الحجاز وذلك لوجود الأماكن المقدسة ومشاعر الحج ، حيث يذكر بأن التجارة بالحجاز مربحة لأن بها فرضتي الدنيا وسوق منى . انظر : محمد بن أحمد بن أبي بكر المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ت . دي غويه ، ط ٢ ، لندن ، ١٩٠٦ ، ص ٩٧ . وبالرغم من أن إشارة المقدسي متأخرة (ت ٣٩٠) إلا أنه يوجد ما يؤيدها في مصادر متقدمة ، انظر الهامش رقم (٣٧) فيما يلي .

(٢٨) جدة مدينة على ساحل البحر الأحمر وهي فرضة أهل مكة .. ويشير الأصبغري بأنها مدينة عامرة كثيرة التجارات والأموال . انظر : إبراهيم بن محمد الأصبغري ، مسالك الممالك ، ت . دي غويه ، ط ٢ ، بريل ، لندن ، ١٩٢٧ ، ص ١٩ . المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٧٩ .

فيها حجاج البحر القادمون من مصر والمغرب واليمن والحبشة مجاًلاً رحباً للبيع والشراء ، حيث كانوا يقضون بها بعض الوقت قبل توجههم إلى مكة لأداء مناسك الحج والعمرة^(٢٩) . كما كانت هذه الموانئ مقصداً لمن أراد التجارة وخصوصاً في أشهر الحج . وهكذا أصبحت أسواق الحجاز بعد الإسلام تتميز برواج التجارة في السلع المتعددة والمتنوعة .

التجارة والسلع المتداولة

تنوع البيع والشراء وانتعشا في موسم الحج . فقد كانت الأسواق عامرة ورائجة ، بل يمكن القول بأنها كانت مواسم اقتصادية عظيمة ومربحة لمن شارك أو ساهم فيها ببيع أو شراء . وكان يعرض في هذه الأسواق الكثير والمتنوع من البضائع وغيرها من السلع الاقتصادية ذات المنفعة والندرة النسبية . فقد كانت هناك تجارة الحبوب ، والأطعمة ، والماشية ، والدواب ، والمنسوجات والعطور ، والأدم (الجلود المدبوغة) ، هذا بالإضافة إلى تجارة الرقيق .

الحبوب والأطعمة

كانت تجارة الحبوب كالقمح والشعير والحنطة والأطعمة الغذائية من التجارات الرائجة في مواسم الحج وذلك لوجود الآلاف من الحجاج سنوياً في مكة الفقيرة في مواردها الطبيعية والغذائية مما أدى إلى ندرة السلع الغذائية المتاحة لأهل مكة^(٣٠) . وكانت الحبوب والأطعمة تُجلب إلى مكة بواسطة القوافل سواء من خارج الجزيرة العربية أو من داخلها . وقد تميزت قوافل الحجيج القادمة

— أما «الجار» فهي مدينة على ساحل البحر الأحمر وبينها وبين جدة مسيرة يوم وليلة ، وقد كانت مرسى لسفن الحبشة ومصر وعدن وكان أهلها أهل تجارة . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٩٢ - ٩٣ . وقد كان الجار ميناء المدينة القديم ، وكان خزانة المدينة حيث يجلب إليه الطعام من مصر ، ويعرف موقع الجار الآن باسم الرايس غرب بلدة بدر على الطريق من المدينة إلى مكة . انظر : محمد بن إسحاق الحربي ، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة ، ت . حمد الجاسر ، ط ٢ ، الرياض : دار النخبة ، ص ٤١٩ - ٤٢٠ ، هامش (٤) . ص ٤١٣ ، هامش (٦) . انظر أيضاً : حمد الجاسر «حول الجار والشعبية» ، مجلة العرب ، ملحق ١٢ ، الرياض ، ١٩٧٠ ، ص ١١٧٠ - ١١٧١ .

(٢٩) انظر : أحمد بن واضح اليقوي ، كتاب البلدان ، ت . دي غويه ، ط ٢ ، بريل ، ليدن ، ١٨٩٢ ، ص ٣١٣ ، ٣٣١ . السيف ، الحياة الاقتصادية ، ص ٩٩ .

(٣٠) يشير القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة حيث يقول تعالى : ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا﴾ . سورة إبراهيم ، الآية ٣٧ . انظر هنا : أحمد إبراهيم الشريف ، دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة ، القاهرة : دار الفكر العربي ، د.ت ، ص ٧ .

من العراق بأنها كانت غنية ومحملة بالأمتعة والسلع^(٣١). حيث كان التجار العراقيون ينقلون كميات كبيرة من الحبوب كالحنطة والشعير إلى الحجاز لبيعها في مواسم الحج^(٣٢). وكان وادي القرى^(٣٣) - وهو طريق تجاري قديم ويمر به الحجاج بعد الإسلام - محطة استقبال البضائع العراقية ومنها تنقل إلى مكة^(٣٤).

كما انتعشت تجارة الحبوب في موانئ الحجاز كجدة والجار التي أصبحت أسواقاً عامرة خصوصاً لحجاج البحر الذين يقيمون بها قبل انتقالهم إلى مكة. وكان بعض الحجاج المصريين يجلبون معهم بعض ما تنتجه بلادهم من سلع وحبوب لبيعها في مدينة جدة، ثم شراء ما يحتاجونه منها قبل انتقالهم إلى مكة^(٣٥). وتشير المصادر إلى أهمية ميناء جدة كمحطة لاستقبال السفن المحملة بالحبوب، فقد كانت هذه السفن تأتي محملة بالقمح إلى جدة في مواسم الحج^(٣٦)، ومن ثم يقوم التجار بنقل هذه الحبوب إلى مكة وذلك لبيعها والتكسب منها. ومما يدل على ذلك ما يرويه الفاكهي عن شاهد عيان إذ يقول: «رأيت تاجراً قَدِمَ من جدة، فدخل من أسفل مكة بأحمره تحمل قمحاً...»^(٣٧). وفي مكة كان التجار يتولون بالبيع والشراء المواد الغذائية وغيرها من السلع،

(٣١) حسين عطوان، الشعراء الصعاليك في العصر الأموي، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٠، ص ١٠٥.

(٣٢) علي حسني الخربوطي، تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي: السياسي، الاجتماعي، الاقتصادي، القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٩، ص ٣٧٨. السيف، الحياة الاقتصادية، ص ١٢١.

(٣٣) وادي القرى: هو واد فيه قرى كثيرة، من أعمال المدينة ويمر به حجاج الشام. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٤٥. ويُدعى وادي القرى الآن العلا. الحولي، كتاب المناسك، ص ٤١٣، هامش (٢). انظر أيضاً: الشريف، دور الحجاز، ص ٧.

(٣٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٩٧. انظر أيضاً: عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه، المسالك والممالك، بريل، ١٨٨٩، ص ١٢٩.

(٣٥) عبدالرحمن بن محمد بن علي بن الجوزي، صفة الصفوة، ت. محمود فاحوري، ط ٤، بيروت: دار المعرفة، ١٩٨٦، ج ٤، ص ص ٣٢٤ - ٣٢٥. انظر أيضاً: اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٣٣٠.

(٣٦) ابن عساکر، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٦، ص ص ٢٧٣ - ٢٧٤. حيث يذكر أن سفيان بن سعيد الثوري (ت. ١٦١هـ) قد ركب إحدى هذه السفن المحملة بالقمح - عندما أراد أن يحج - ونزل جدة ثم ارتحل إلى مكة. وانظر ترجمة سفيان بن سعيد الثوري عند محمد بن سعد بن منيع البصري، الطبقات الكبرى، بيروت: دار صادر، د.ت، ج ٦، ص ص ٣٧١ - ٣٧٤. الذهبي، تاريخ الإسلام، (١٦١ - ١٧٠هـ)، ص ص ٢٢٢ - ٢٤٢. انظر أيضاً: هامش رقم (٣٩).

(٣٧) الفاكهي، أخبار مكة، ج ٢، ص ٢٧١. وما يرويه الفاكهي هنا كان إبان حركة عبد الله بن الزبير: انظر: الهامش رقم (٤٦) فيما يلي.

وكانوا يقيمون بجوار المسجد الحرام خلال أيام الحج^(٣٨)، حيث يزداد الطلب على المواد الغذائية. ولا شك أن حركة التداول التجارية الكبيرة في الحبوب بميناء جدة ترتب عليها ازدهار وانتعاش الحياة الاقتصادية بهذا الميناء وبالتالي كان أهاليه يجنون أرباحاً كبيرة من هذه التجارة وغيرها^(٣٩). ولم تكن تجارة الحبوب والأطعمة مقصورة على التجار، بل شارك فيها بعض الأمويين. فقد كان لمعاوية بن أبي سفيان ساحة بمكة تسمى بين الدارين حيث كانت القوافل القادمة من الطائف والسراة^(٤٠) والمحملة بالحبوب والسمن والعسل تنزل حمولتها في بين الدارين وتباع فيها^(٤١).

ويرجع قدوم القوافل والسفن المحملة بالحبوب والسلع الغذائية إلى الحجاز لازدياد الطلب عليها، ولا سيما في أوقات الحج حيث يتوافد الآلاف على مكة التي تعتمد في غذائها على ما يرد عليها من الأمصار والأقاليم الإسلامية المجاورة. وتبين حالة تعرضت لها مكة في أحد مواسم الحج مدى اعتمادها الغذائي الكلي على ما يفد عليها من الأمصار والأقاليم الإسلامية. ففي حج عام ٧٢ هـ، تعرضت مكة للحصار الاقتصادي الذي ضرب عليها بهدف إنهاء حركة عبدالله بن الزبير السياسية^(٤٢)، وذلك عندما حاصر الحجاج بن يوسف الثقفي^(٤٣) عبدالله بن الزبير ومنع عنه

(٣٨) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، كتاب الأغاني، بيروت: مؤسسة جمال للطباعة والنشر، د.ت، ج ٩، ص ٣٢٩.

(٣٩) كانت جدة موضعاً لتخزين الحبوب التي تنقل إلى مكة، ولهذا أعتبرت خزانة مكة. انظر: الفاكهي، أخبار مكة، ج ٣، ص ٥٣. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٧٩. وانظر: ابن منظور، لسان العرب، ج ١٣، ص ١٣٩.

(٤٠) «السراة» جمع السروات، واشتهرت بإنتاج الحبوب والتمر والعسل. انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٨٦. وحول السراة وأقسامها، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

(٤١) الأزرق، أخبار مكة، ج ٢، ص ٢٣٩. انظر أيضاً: الفاكهي، أخبار مكة، ج ٣، ص ٢٨٨.

(٤٢) استقل عبدالله بن الزبير بالحجاز بعد موت يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ، وأعلن نفسه خليفة، وبويع له كأمر للمؤمنين. وقد سيطر على العراق واليمن ومصر، وأكثر الشام، إلى أن تم القضاء على حركته وقته على يد الحجاج بن يوسف في خلافة عبدالملك بن مروان سنة ٧٣ هـ. انظر ترجمته عند ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٧، ص ٣٩٩ - ٥٢٦. الذهبي، تاريخ الإسلام (٦١ - ٨٠ هـ)، ص ٤٣٥ - ٤٤٧. انظر أيضاً:

Abd al-Ameer Abd Dixon, the Umayyad Caliphate: 64-86/684-705 (A Political Study), London: Luzac, 1971, pp. 121-142

(٤٣) كان للحجاج بن يوسف الثقفي دور كبير في تدعيم سلطة بني أمية ومحاربة الخارجين عليها. انظر: احسان صديقي العمدة، الحجاج بن يوسف الثقفي: حياته وآراؤه السياسية، ط ٢، بيروت: دار الثقافة، ١٩٨١.

وأصحابه وصول الأطعمة والحبوب^(٤٤)، وقد ترتب على عدم وصول الامدادات والمؤن الغذائية إلى مكة أن غلت الأسعار وارتفعت ارتفاعاً شديداً. ويؤكد الفاكهي ذلك حيث يروي عن شاهد عيان قوله: «رأيت الدجاجة (تباع) بعشرة دراهم، واشترت مدًا من ذرة بعشرين درهماً...»^(٤٥) كما أصاب الناس في هذا الحصار مجاعة شديدة فأقبلوا على شراء الطعام بالسعر الذي يحدده التجار، حيث يبدو أنه سادت حالة من الاحتكار في هذه المجاعة. فأصبح عرض السلعة خاضعا لتحكم التجار، الذين يهدفون إلى تحقيق أقصى ربح ممكن وذلك لعدم وجود سلع بديلة، حتى أن تاجراً قدم من جدة باع الصاع من الحبوب بالسعر الذي يراه، كما باع أحد الصيادين السمكة الواحدة بدرهم^(٤٦).

وفي هذا الحصار ساهمت القوافل في تأمين أصحاب الحجاج بن يوسف، فقد كانوا مكتفين غذائياً حيث كانت القوافل تأتي إليهم من الشام وهي محملة بالأشربة والأطعمة من سويق^(٤٧) وكعك ودقيق^(٤٨). ويصف أحد حجاج ذلك العام (٧٢هـ) أصحاب الحجاج بن يوسف بقوله: «ورأيت أصحابه مخاصيب^(٤٩). ولقد ابتعنا من بعضهم كعكاً بدرهم فكفانا إلى أن بلغنا الجحفة^(٥٠) وإننا لثلاثة نفر»^(٥١).

(٤٤) أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، أنساب الأشراف، بغداد: مكتبة المثنى، ١٩٨١، د.ت، ج ٥، ص ٣٥٧، ٣٦٨. انظر أيضاً:

J. Perier, Vie d'al-Hadjdaj Ibn Yousof, Paris: n.p., 1904, p. 30

(٤٥) الفاكهي، أخبار مكة، ج ٢، ص ٣٧٠. البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٣٦١. وانظر أيضاً: علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت: دار الفكر، ١٩٧٨، ج ٤، ص ٢٣. العمدة، الحجاج بن يوسف، ص ١٣١.

(٤٦) الفاكهي، أخبار مكة، ج ٢، ص ٣٧١. وقد وصل الأمر بأصحاب ابن الزبير في هذه المجاعة إلى أكل البراذين وهي نوع من الحبوب. انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٣٦١.

(٤٧) «السويق»: شراب يتخذ من الحنطة والشعير. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج ١٠، ص ١٧٠.

(٤٨) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٣٦٠.

(٤٩) تعني مخاصيب أن طعامهم ولبنهم كثير. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج ١، ص ٣٥٦.

(٥٠) الجحفة: قرية على الطريق بين مكة والمدينة وهي ميقات لأهل مصر والشام. ياقوت، معجم البلدان،

ج ٢، ص ١١١. ابن حجر، فتح الباري، ج ٣، ص ٣٨٤ - ٣٨٥. مالك بن أنس الأصبحي،

الموطأ، ت. محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٥، ج ١، ص ٣٣٠. وانظر:

بكر، دروب الحجيج، ص ٧٥ - ٧٦.

(٥١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ت. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٤، القاهرة:

دار المعارف، ١٩٧٩، ج ٦، ص ١٧٥. العمدة، الحجاج بن يوسف، ص ١٣٠. السيف، الحياة

الاقتصادية، ص ٢١٥.

إن دور القوافل والتجار في إمداد مكة بالمواد الغذائية خلال مواسم الحج كان دورًا فعالًا ومؤثرًا ، وقد ساهم إلى حد كبير في التعويض عن النقص في المؤن الغذائية بمكة . ويلاحظ هنا ، أن تعاليم الإسلام المتعلقة بالحج كان لها دورها أيضًا في اكتفاء الحجاج غذائيًا خلال توجههم لتأدية مناسك الحج ، ومكوثهم بالمشاعر المقدسة . فقد حيب الإسلام للحاج بأن يتزود بالطعام عندما ينوي الحج لأنه يغنيه عن سؤال الناس ، وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ الآية (٥٢). وقد فُسر التزود هنا بأنه حمل الحاج لما يكفيه من الطعام والشراب كالدهن والكمك والتمر والسويق (٥٣) . ومن جهة أخرى ، يبدو أن قدوم الحجاج بطعامهم وشرابهم إلى الحجاز قد ساهم نسبيًا في زيادة التبادل التجاري بين الحجاج ، كما أدى لإدخال أصناف جديدة من الأغذية والأشربة والتي أوجدت تنوعًا وتعددًا للسلع النباتية والمنتجات الحيوانية المعروضة في مواسم الحج .

الأغنام والدواب

إن تجارة الماشية من إبل وبقر وأغنام تجارة رائجة يزداد البيع والشراء فيها في مواسم الحج ، حيث تقدم كهذي وأضاحي (٥٤) ، وتنحر في منى أيام التشريق (٥٥) . وقد كانت هذه التجارة مرتبطة ارتباطًا كبيرًا بالحج ومناسكه إذ يقول تعالى : ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله فمن كان

(٥٢) سورة البقرة ، الآية ١٩٧ .

(٥٣) الطبري ، جامع البيان ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ - ٢٨١ . القرطبي ، أحكام القرآن ، ج ٢ ، ص ٤١١ - ٤١٢ . وقد كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون : نحن المتوكلون . فأنزل الله تعالى : ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ .

انظر : أبو داود ، السنن ، ج ٢ ، ص ٣٤٩ . الزمخشري ، الكشاف ، ج ١ ، ص ٢٤٤ . الطبري ، القرى ، ص ٦٦ .

(٥٤) الهدي : هو ما قلد وأشعر ووقف به بعرفة ، وحكم الهدي حكم الأضحية إلا في المكان ، فالهدي يختص بالحرم والأضحية في كل مكان . انظر : الأصبحي ، الموطأ ، ج ١ ، ص ٣٧٩ . الطبري ، القرى ، ص ٤٤٧ - ٤٤٨ .

(٥٥) الطبري ، القرى ، ص ٤٤٧ - ٤٤٨ . وأيام التشريق هي الأيام الثلاثة بعد يوم النحر في منى ، وسميت بذلك لأن المسلمين كانوا يشرقون فيها لحوم الأضاحي للشمس . انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، ج ١٠ ، ص ١٧٦ .

منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى ﴿ الآية (٥٦) . كما أن الأضاحي والهدي من شعائر الإسلام التي حث على تعظيمها ، يقول تعالى : ﴿ ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ﴾ (٥٧) . ويقول تعالى : ﴿ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ﴾ الآية (٥٨) . ولهذا فالهدي والأضاحي لا بد أن تكون كبيرة الحجم غالية السعر. ويكره المماكسة ، وهي المساومة ، عند بيعها لإنقاص ثمنها (٥٩) .

ولقد ترتب على قدوم الآلاف من الحجاج سنوياً إلى المشاعر المقدسة أن ازدهرت تجارة الإبل والأغنام والأبقار ، كما زاد المعروض منها لازدياد الطلب عليها . ولا عجب في ذلك فهي سلع اقتصادية ذات منفعة ومطلوبة في مواسم الحج . وتشير المصادر إلى انتعاش هذه التجارة وتعدد الأسواق التي تعرض فيها ، فقد اشترى عبدالله بن عمر بن الخطاب (٦٠) نجياً (٦١) بمال عظيم فلما أعجبه ، أناخه وأشعره ثم أدخله في البدن ، وهو ما يُهدى من الإبل والبقر والغنم (٦٢) . وعندما

(٥٦) سورة البقرة ، الآية ١٩٦ . وتشير آيات كثيرة إلى الهدى . انظر : سورة البقرة ، الآية ١٩٦ . سورة المائدة ، الآيتين ٢ ، ٩٧ . سورة الفتح ، الآية ٢٥ .

(٥٧) سورة الحج ، الآية ٣٢ .

(٥٨) سورة الحج ، الآية ٣٦ .

(٥٩) الطبري ، جامع البيان ، ج ١٧ ، ص ١٥٦ . القرطبي ، أحكام القرآن ، ج ١٢ ، ص ٥٦ . الزمخشري ، الكشاف ، ج ٣ ، ص ١٥٦ . ابن حجر ، فتح الباري ، ج ٣ ، ص ٥٣٥ - ٥٣٦ . والمماكسة في البيع والشراء هي المساومة لإنقاص الثمن والخط من قيمة المعروض . ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٦ ، ص ٢٢٠ . وقد كان عمر بن عبدالعزيز لا يرى في ذلك بأساً ، كما أن معاوية بن أبي سفيان قد مأكس تاجرًا . انظر : عبدالله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا ، إصلاح المال ، ت. مصطفى مفلح القضاة ، ط ١ ، المنصورة : دار الوفاء للطباعة والنشر ، ١٩٩٠ ، ص ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٦٠) عبدالله بن عمر بن الخطاب صحابي جليل توفى بمكة سنة ٧٤هـ . انظر : ترجمته كاملة عند ابن سعد ، الطبقات ، ج ٤ ، ص ص ١٤٢ - ١٨٨ . الذهبي ، تاريخ الإسلام (٦١ - ٨٠هـ) ، ص ص ٤٥٣ - ٤٦٧ .

(٦١) «النجيب» من الإبل والجمع نجائب ، وهو القوي منها والخفيف السريع . ابن منظور ، لسان العرب ، ج ١ ، ص ٧٤٨ .

(٦٢) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٤ ، ص ١٦٦ . الأصبهاني ، حلية الأولياء ج ١ ، ص ص ٢٩٤ - ٢٩٥ . وسمي ما يُهدى من الإبل والبقر والغنم بدنة لعظمها وضخامتها . انظر : الطبري ، القرى ، ص ٥٧٣ . ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٣ ، ص ص ٤٨ - ٤٩ .

أحرم عبدالله بن عمر أيضاً بالحج والعمرة من البيداء^(٦٣) اشترى الهذلي من قديد^(٦٤) - والتي يبدو أنها كانت سوقاً لبيع الماشية والأغنام - ثم ساق هديه إلى مكة^(٦٥) . كما اشترى صفوان بن سليم^(٦٦) عندما حج - بدنة بسبعة دنانير كان يملكها^(٦٧) . والواقع أن تجارة الماشية كانت رائجة بسوق منى التي كانت سوقاً موسمية لسلمة مطلوبة وهي الأغنام والإبل والأبقار ، حيث كان يتم التعامل فيها بالبيع والشراء خلال أشهر الحج . ففي إحدى السنوات التي حج فيها عبد الملك بن مروان اشترى بدنة من سوق منى^(٦٨) . كما كان التجار يتبايعون بأموال الناس من إبل وغيرها من السلع بمنى^(٦٩) . ومما يدل على انتعاش التجارة بمنى وجود منازل خاصة بالتجار يقيمون بها في منى ، وكان يطلق على من خرج للتجارة وأقام في تلك المنازل اسم الداج^(٧٠) .

والملاحظ أن البيع والشراء قد عم في منى حتى وصل الأمر أحياناً إلى تواجد الباعة بمسجد منى . وقد لقي ذلك معارضة وامتناعاً من بعض علماء المسلمين ، فعندما حج الزهري^(٧١) سنة

(٦٣) البيداء : أرض ملساء بين مكة والمدينة وهي إلى مكة أقرب . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٥٢٣ .

(٦٤) قديد : موضع بالقرب من مكة . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣١٣ .

(٦٥) ابن حجر ، فتح الباري ، ج ٣ ، ص ٥٤١ - ٥٤٢ ، ٥٥٠ . ابن عساکر ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٦ ، ص ٣٤٥ . الطبري ، القرى ، ص ٥٦٨ .

(٦٦) صفوان بن سليم : فقيه وتابعي من أهل المدينة وقد توفي بها سنة ١٣٢هـ . انظر ترجمته عند ابن عساکر ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٦ ، ص ٤٣٥ - ٤٣٦ . الذهبي ، تاريخ الإسلام (١٢١ - ١٤٠هـ) ، ص ٤٥٢ - ٤٥٣ .

(٦٧) الأصبهاني : حلية الأولياء ، ج ٣ ، ص ١٦٠ . ابن عساکر ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٦ ، ص ٤٣٥ - ٤٣٦ . الذهبي ، تاريخ الإسلام (١٢١ - ١٤٠هـ) ، ص ٤٥٣ . السيف ، الحياة الاقتصادية ، ص ١٠٢ .

(٦٨) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ، ص ٢٣٥ . السيف ، الحياة الاقتصادية ، ص ١٠٣ .

(٦٩) الطبري ، القرى ، ص ٥٤٢ . ويشير المقدسي بأن التجارة كانت مربحة بمنى . المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٩٧ .

(٧٠) سأل عمر بن الخطاب زيد بن صوحان عن مكان إقامته بمنى ، وعندما علم بأن زيدا يقيم في الجهة اليسرى من منى قال له : ذلك منزل الداج فلا تنزله . انظر : الطبري ، القرى ، ص ٤٧٩ .

«والداج» هم الذين يسعون في أثر الحجاج ، وقيل هم الأجراء والمكاريين ونحوهم . انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٢ ، ص ٢٢٧ - ٢٦٣ . الطبري ، القرى ، ص ٤٧٩ . ويبدو أن التسمية جاءت من تخرج بعض العرب قبل الإسلام وتزعمهم التجارة أيام الحج وخصوصاً في العشرين من ذي الحجة ولهذا سموا من يخرج للتجارة بالداج . وقد استمرت التسمية بعد ذلك تطلق على من خرج لمكة أيام الحج بهدف العمل أو التجارة . انظر : الزمخشري ، الكشاف ، ج ١ ، ص ٢٤٥ .

(٧١) الزهري : هو محمد بن مسلم بن عبدالله بن شهاب ، أحد الأعلام والحافظين . ولد سنة ٥٠هـ وتوفي سنة ١٢٤هـ . انظر ترجمته عند الذهبي ، تاريخ الإسلام (١٢١ - ١٤٠هـ) ، ص ٢٢٧ - ٢٤٩ .

١١٣هـ ، أمر بإخراج كل بيع من مسجد منى ولم يترك فيه شيئاً يباع^(٧٢) . ويبدو أن نهي الزهري عن البيع والشراء بمسجد منى راجع لكون المساجد أصلاً للعبادة وليست مخصصة للتجارة . والملاحظ أن تجارة الإبل كانت سائدة أيضاً في عرفة ، فقد كان لجابر بن زيد^(٧٣) ناقة يقف عليها بعرفة ، وقد سيمت منه بمبلغ مائتي دينار فلم يبيعها^(٧٤) . ولا شك أن تجارة الإبل والأغنام كانت مربحة بمكة وذات مردود مالي كبير ، فعندما قدم الشاعر الأموي كثير^(٧٥) إلى مكة حاجاً ، خرج بجمل له ليبيعه وقد أعطي فيه مبلغ مائتي درهم^(٧٦) . كما كان كثير أيضاً يسوق الأغنام إلى ميناء الجار لبيعها والتكسب منها^(٧٧) ، حيث كان يتوافد على هذا الميناء حجاج البحر قبل انتقالهم إلى مكة .

ولم تقتصر تجارة الماشية على ما يقدم كهدي وأضاحي ، بل شملت أيضاً تجارة البغال والحمير التي تستعمل للركوب وحمل المتاع والأثقال . وتشير المصادر إلى رواج هذه التجارة حيث يذكر مالك أن بعض تجار الحجاز كانوا يقتربون ويشترون البغال وغيرها من السلع لبيعها في موسم الحج في كل عام ، وأنه لولا هذه التجارة وأرباحها ما خرجوا إلى موسم الحج^(٧٨) . كما كان الطلب يزداد على الحمير في أيام الحج ، فقد باع عبدالله بن أبي نوح حماراً بثلاثين ديناراً في سوق الأبطح^(٧٩) ، التي كانت مزدهرة بالبيع والشراء وخصوصاً في أيام موسم الحج^(٨٠) .

(٧٢) ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٦ ، ص ٢٨٩ .

(٧٣) جابر بن زيد : هو مفتي أهل البصرة وعالمهم ، توفي سنة ٩٣هـ وقيل ١٠٣هـ . انظر ترجمته عند ابن سعد ، الطبقات ، ج ٧ ، ص ١٧٩ - ١٨٢ . الأصبهاني ، حلية الأولياء ، ج ٣ ، ص ٨٥ - ٩١ . الذهبي ، تاريخ الإسلام ، (٨١ - ١٠٠هـ) ص ٥٢٤ - ٥٢٥ .

(٧٤) الأصبهاني ، حلية الأولياء ، ج ٣ ، ص ٨٦ - ٨٧ .

(٧٥) كثير : شاعر أموي مات في خلافة يزيد بن عبد الملك سنة ١٠٥هـ . انظر ترجمته عند الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٩ ، ص ٣ - ٣٩ .

(٧٦) الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٩ ، ص ٣١ . السيف ، الحياة الاقتصادية ، ص ١٠٣ .

(٧٧) الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٩ ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٧٨) انظر : مالك بن أنس الأصبهاني ، المدونة الكبرى ، بيروت : دار صادر ، د.ت ، ج ١٢ ، ص ٩٤ . السيف ، الحياة الاقتصادية ، ص ١٠٢ . وحول دخول مكة بهدف التجارة وليس للحج أو العمرة انظر : ابن تيمية ، شرح العدة ، ج ١ ، ص ٣٣٩ - ٣٤٠ .

(٧٩) جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، ت. محمود فائوري ، ط ٤ ، بيروت : دار المعرفة ، ١٩٨٦ ، ج ٤ ، ص ٣٩٧ - ٣٩٩ . والأبطح : مسيل واسع بالقرب من مكة . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٤٤ .

(٨٠) الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٢ ، ص ٣٤٣ . انظر أيضاً : أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، بيروت : مؤسسة المعارف ، د.ت ، ج ١ ، ص ٣٧٥ . السيف ، الحياة الاقتصادية ، ص ١٠٢ .

والجدير بالذكر هنا ، أن تعاليم الإسلام المتعلقة بالحج ومناسكه كان لها دور في رواج هذه التجارة ، فقد أعطى الإسلام لرعاة الإبل الرخصة في ترك المبيت بمنى أيام التشريق والمبيت بمكة^(٨١) . وقد سهلت هذه الرخصة للتجار حرية التنقل للاهتمام بإبلهم وأغنامهم وعرضها في الأسواق الرائجة خلال مواسم الحج .

المنسوجات والألبسة

كانت المنسوجات والألبسة من السلع المتداولة في مواسم الحج حيث يزداد الطلب عليها . وكانت تستورد من أقاليم مشهورة بصناعة النسيج كالشام والعراق واليمن وغيرها من الأقاليم الإسلامية . وتميزت بعض المنسوجات بكثرة الطلب عليها كالبز وهو نوع من الثياب الجيدة^(٨٢) . ولهذا كان تجار البز يقدمون من الشام إلى الحجاز لبيع بضاعتهم في مواسم الحج^(٨٣) . كما كان البز العراقي أهم ما تستورده الحجاز لبيعه في مواسم الحج . ويشير مالك إلى تجارة البز بقوله : «وكان البز يقدم من العراق فيأتي صاحبه المدينة بتسمية متاعه وصفته فيبتاعه الناس منه ثم يبيعونه بعضهم من بعض»^(٨٤) . ويفهم من هذا النص وجود نوع من التنظيم في البيع والشراء ، حيث كان تاجر الجملة يبيع بضاعته لتجار التجزئة ، الذين كانوا يمثلون دور الوسطاء حيث يتعاملون في السلع بالبيع والشراء بين الناس .

واشتهرت المنسوجات اليمنية كالخلل وهي الأردنية والقمصان^(٨٥) ، والشوي وهي ثياب معروفة وجيدة تكون من كل لون^(٨٦) .

وكانت هذه المنسوجات تُصدّر من اليمن إلى الحجاز حيث كان الناس يفتخرون بشرائها والحصول عليها ويلبسونها في المواسم والأعياد^(٨٧) . ففي أحد مواسم الحج اشترى عمر بن أبي

(٨١) حول هذه الإباحة ، انظر : الأصبغي ، الموطأ ، ج ١ ، ص ص ٤٠٨ - ٤٠٩ . الطبري ، القرى ، ص ص ٥٤٤ - ٥٤٥ .

(٨٢) ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٥ ، ص ٣١١ .

(٨٣) الذهبي ، تاريخ الإسلام (١٢١ - ١٤٠هـ) ، ص ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٨٤) الأصبغي ، المدونة ، ج ٩ ، ص ٢١٢ .

(٨٥) تشمل الخلل أيضًا منسوجات أخرى كالوشى والحرير والخز ، وقيل إن الخلل هي برود اليمن . انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، ج ١٢ ، ص ١٧٢ .

(٨٦) ابن منظور ، لسان العرب ، ج ١٥ ، ص ٣٩٢ .

(٨٧) جواد علي ، المفصل ، ج ٧ ، ص ص ٥٩٨ - ٥٩٩ ، ٦١٣ . انظر أيضًا : صالح أحمد العلي ، « الأنسجة - في القرنين الأول والثاني » ، مجلة الأبحاث ، ط ٤ ، سنة ١٤ ، بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٦١ ، ص ٥٥٦ .

ربيعة^(٨٨) - عندما كان حاجًا - ، حلاً وثيابًا من ثياب اليمن وعطرًا بألف دينار^(٨٩) . كما اشترى عبدالله بن جعفر بن أبي طالب^(٩٠) في أحد مواسم الحج جبتي وشي بثلاثمائة دينار^(٩١) . وقد كان بعض المسلمين يرتدون ثياب الخز - وهي المنسوجة من الصوف والحرير^(٩٢) - وكذلك ثياب الوشي في منى بعد التحلل من الإحرام^(٩٣) . وقد تميزت هذه المنسوجات بقيمتها وغلو ثمنها إذ كان يرتديها القلة الذين يملكون النقد لشراؤها والتمتع بلبسها . والجدير بالذكر أن بعض أقاليم فارس كطبرستان قد اشتهرت بصناعة المنسوجات والألبسة ، ويبدو أن الكثير والمتنوع من الأكسية والثياب كانت تستورد من طبرستان وتباع في مكة^(٩٤) ، حيث يزداد الطلب عليها ، وخصوصًا في مواسم الحج .

ومن ناحية أخرى ، فقد ساهم بعض الخلفاء الأمويين في إنعاش تجارة الألبسة والمنسوجات وذلك بما كانوا يولونها من إهتمام وعناية . فقد كان الخليفة هشام بن عبد الملك مولعًا بالألبسة ، ويشير إلى ذلك ابن عبد ربه حيث يروي بأنه «لم يكن في بني مروان من ملوكها أعطر ولا ألبس من هشام ، خرج حاجًا فحمل ثياب طهره على ستائة جمل»^(٩٥) .

وكان الأمويون يكسون الكعبة في مواسم الحج بالمنسوجات التي كانت تُجلب من خارج الحجاز ، كالديباج والقباطي والحلل . وكان الخليفة معاوية بن أبي سفيان أول من كسا الكعبة بالديباج^(٩٦) .

(٨٨) عمر بن عبدالله بن أبي ربيعة : شاعر أموي مشهور بشعر الغزل . انظر ترجمته كاملة عند : الأصفهاني ، الأغاني ، ج ١ ، ص ص ٦١ - ٢٤٨ .

(٨٩) الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٩ ، ص ٦٣ ، ج ١ ، ص ص ١٦٦ - ١٦٧ . المبرد ، الكامل ، ج ١ ، ص ٣٧٥ . السيف ، الحياة الاقتصادية ، ص ١٠٢ .

(٩٠) عبدالله بن جعفر بن أبي طالب الهاشمي : صحابي وروى بعض الأحاديث . ولد بأرض الحبشة ، وتوفي بالمدينة سنة ٨٦ هـ . انظر ترجمته كاملة عند : ابن عساكر : تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٧ ، ص ص ٢٣٨ - ٣٤٧ .

(٩١) ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٧ ، ص ٣٣٤ .

(٩٢) ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٥ ، ص ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٩٣) الذهبي ، تاريخ الإسلام (٦١ - ٨٠ هـ) ، ص ٣٨٠ .

(٩٤) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٣٦٧ .

(٩٥) انظر : أحمد بن محمد بن عبد ربه ، العقد الفريد ، ت . عبد المجيد الترخيني ، ط ٣ ، بيروت : دار الكتب

العلمية ، ١٩٨٧ ، ج ٥ ، ص ١٩٢ . علي حسني الحروبلي ، الحضارة العربية الإسلامية ، القاهرة : مكتبة الخانجي ، دت ، ص ١٥٩ .

(٩٦) اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٣٨ .

وقد كساها في عام واحد كسوتين : كسوة من الديباج وأخرى من القباطي^(٩٧) . ثم كساها من بعده ابنه يزيد بن معاوية بالديباج والخسرواني^(٩٨) . والديباج الذي كانت تُكسى به الكعبة هو نوع من الثياب التي كانت تتخذ من أجود الحرير^(٩٩) . ومن المرجح أنه كان يستورد من أقاليم مشهورة بصناعة الديباج كأقاليم خراسان في فارس^(١٠٠) . أما فيما يتعلق بكسوة القباطي ، فهي ثياب من كتان ، وكانت تستورد من مصر ، حيث كانت تصنع هناك ، وهي منسوبة إلى القبط^(١٠١) . أما الحلل ، التي تتخذ لكسوة الكعبة ، فهي الأردنية والبرود^(١٠٢) ، وكانت تأتي من نجران المشهورة بنسج الحلل ، حيث كان أهالي نجران يؤدون هذه الحلل كضريبة أو جزية للأمويين^(١٠٣) .

وكان الأمويون ينفقون الكثير على كسوة الكعبة ويمنحونها عناية فائقة . وما يؤيد ذلك ما رواه الطبري من أن كسوة الخليفة الوليد بن عبد الملك - عندما حج عام ٩١ هـ - كانت من الديباج الذي لم يُرى مثيلاً له^(١٠٤) . وأخيراً يمكن القول بأن قدوم الآلاف من الحجاج سنوياً إلى الحجاز ترتب عليه زيادة التبادل التجاري في الألبسة والثياب ، كما نتج عنه أن أصبح لأهل الحجاز معرفة بالألبسة تفوق ما لغيرهم ، فاستفادوا من اقتباس الثياب والمنسوجات التي لم تكن معروفة لديهم والتي تأتي من أقاليم إسلامية أخرى كالشام واليمن والعراق ومصر وغيرها^(١٠٥) .

العطور والطيب

كانت العطور والطيب سلعة رائجة في مواسم الحج ، ولا غرابة في ذلك فقد اشتهرت مكة

(٩٧) الأزرق ، أخبار مكة ، ج ١ ، ص ٢٦٠ ، انظر أيضاً : عبدالله عقيل عنقاوي ، « كسوة الكعبة في العصر المملوكي » ، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية ، جدة ، مركز النشر العلمي ، ١٩٨٥ ، مجلد ٥ ، ص ٤ . ضيف الله الزهراني ، « نفقات عمارة الكعبة المشرفة في صدر الإسلام حتى نهاية العهد العثماني » ، مجلة بحوث تاريخية ، الجمعية التاريخية السعودية ، ط ١ ، الرياض ، ١٤١١ هـ ، ج ١٤ ، ص ٤٤ .

(٩٨) أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري ، فتوح البلدان ، ت. رضوان محمد رضوان ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٧٨ ، ص ٦٠ . انظر أيضاً : الأزرق ، أخبار مكة ، ج ١ ، ص ٢٥٤ .

(٩٩) ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٢ ، ص ٢٦٢ .

(١٠٠) انظر : المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٣٢٤ .

(١٠١) ابن منظور ، لسان العرب ، ج ١ ، ص ٣٧٣ .

(١٠٢) المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ١٧٢ .

(١٠٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٦٠ .

(١٠٤) الطبري ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٤٦٧ . عنقاوي ، كسوة الكعبة ، ص ٤ .

(١٠٥) انظر : العلي ، « الأنسجة في القرنين الأول والثاني » ، ص ص ٥٥١ - ٥٥٢ . انظر أيضاً : صالح أحمد

العلي ، « الألبسة في القرن الأول الهجري » ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد ١٣ ، بغداد ١٩٦٦ ، ص

بعطورها التي كانت تستورد من اليمن والهند عن طريق البحر الأحمر^(١٠٦). كما كانت العطور تستورد أيضاً من الطائف التي اشتهرت بأزهارها وورودها المتنوعة والتي يستخرج ويصنع منها العطور^(١٠٧). وتشير المصادر إلى إزدهار تجارة الطيب والعطور، فقد اشترى عمر بن أبي ربيعة -عندما كان حاجاً- طيباً وحللاً بألف دينار^(١٠٨). كما كانت العطور المستوردة من الطائف تباع على الحجاج في مواسم الحج^(١٠٩). ويبدو أن بعض الحجاج كانوا يجلبون معهم الطيب للتجارة، كما كان البعض الآخر يشترونه كهدايا عند مغادرتهم لمكة والمدينة وذلك بعد قضائهم لفريضة الحج^(١١٠). ومما يدل على انتعاش تجارة العطور ما تشير إليه بعض المصادر من وجود سوق للعطارين بمكة^(١١١).

والجدير بالذكر، أن تجار العطور كانوا يوجدون بأعداد كبيرة في المدينة. ففي موسم حج عام ٦٣هـ والذي صادف وقعة الحرة^(١١٢) كان يقيم بالمدينة أربعمائة تاجر من أهل دارين^(١١٣)

(١٠٦) جواد علي، الفصل، ج ٧، ص ٢٩٣. نورة بنت عبد الملك بن إبراهيم آل الشيخ، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في صدر الإسلام، ط ١، جدة: تهامة، ١٩٨٣، ص ١٤٨.

(١٠٧) عبد الجبار منسي العبيدي، الطائف ودور قبيلة ثقيف العربية، ط ١، الرياض: دار الرفاعي للنشر، ١٩٨٢، ص ص ٥١ - ٥٢. نادية حسني صقر، الطائف في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، ط ١، جدة: دار الشروق، ص ٤٥.

(١٠٨) الأصفهاني، الأغاني، ج ١، ص ص ١٦٦ - ١٦٧. ج ٩، ص ٦٣، المبرد، الكامل، ج ١، ص ٣٧٥.

(١٠٩) العبيدي، الطائف، ص ص ٥١ - ٥٢.

(١١٠) انظر: ابن تيمية، شرح العمد، ج ٢، ص ص ٨٨ - ٩٠. وهنا يذكر ابن تيمية أن الإسلام اشترط لمن يحمل الطيب للتجارة وهو محرم أن يستره ولا يشمه. فإن شمه فعليه كفارة. انظر أيضاً: الطبري، القرى، مقدمة المحقق مصطفى السقا، ص ص ٨ - ٩. وقد نبى سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب، الوليد بن عبد الملك عن استعمال الطيب قبل طواف الإفاضة. انظر: الأصبحي، الموطأ، ج ١، ص ٣٢٩. وعن حكم الطيب خلال الإحرام. انظر: برهان الدين إبراهيم بن فرحون، إرشاد السالك إلى أفعال المسالك، ت. محمد بن الهادي أبو الأجفان، قرطاج: بيت الحكمة، ١٩٨٩، ج ٢، ص ص ٤٠٤ - ٤٠٥.

(١١١) انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٠٢. ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٧، ص ٣٠٤.

(١١٢) الحرة: أرض ذات حجارة سوداء، وفي المدينة حرتان، إحداهما حرة واقم والتي كانت فيها وقعة الحرة المشهورة. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ص ٢٤٥ - ٢٤٩. وقد كانت وقعة الحرة في شهر ذي الحجة سنة ٦٣هـ وذلك عندما قام أهالي المدينة بطرد عامل الخليفة الأموي يزيد بن معاوية، والخروج عن بيعة يزيد، مما ترتب عليه مهاجمة جيش الشام للمدينة وإباحتها وقتل كثير من أهلها، ومن ثم إخضاعها للخلافة الأموية. انظر: الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ص ٤٨٢ - ٤٩٥. عمر سليمان العقيلي، يزيد بن -

بالبحرين يمتنون العطارة^(١١٤). وتدل كثرة العطارين بالمدينة على رواج تجارة العطور وازدياد الطلب عليها، وخصوصاً في أشهر الحج. والملاحظ هنا أن بعض الخلفاء كانوا يصرفون الأموال على شراء الطيب والعطور، فكان الخليفة معاوية بن أبي سفيان أرسل من أوجد وظيفة تطيب الكعبة سنوياً في مواسم الحج وذلك عند كل صلاة^(١١٥). كما كان الخليفة هشام بن عبد الملك مولعاً بالعطور والإنفاق عليها^(١١٦).

الأذم

الأذم هي الجلود، وقيل هي الجلود المدبوغة^(١١٧). وقد اشتهرت تجارة الأذم في الحجاز وخصوصاً في أشهر الحج. ويبدو أن ذلك راجع لكثرة ما ينحر ويقدم كهدي وأضاحي في مكة من إبل وبقر وأغنام. إذ يستفيد أصحاب الأذم من جلود تلك الحيوانات بدبغها ومن ثم المتاجرة بها. وكانت تجارة الأذم رائجة في مكة ومما يدل على ذلك وجود حوانيت خاصة بأصحاب الأذم والتي كانت تُكرى في مواسم الحج بالدنانير الكثيرة^(١١٨). وقد عُرفت الطائف بصناعة الأذم ودباغة الجلود وكانت تُصدر إلى الأسواق، كسوق عكاظ ومجنة وذو المجاز، التي تعقد في مواسم الحج^(١١٩). كما اشتهرت سوق عكاظ بأديمها الذي عرف بين تجار الأديم بالأديم العكاظي، بالرغم

— معاوية : حياته وعصره ، الرياض : د.ن ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، ص ٦٤ - ٦٩ . وحول هذه المعركة انظر أيضاً :

M.J. Kister, «The battle of the Harra: Some Socio-Economic Aspects», Study in Memory of Guston Weit, Ed., by Miriam Rosen - Ayalon, Jerusalem, 1977, pp. 93 - 129.

(١١٣) دارين : محطة للسفن وميناء بالبحرين وكان يُجلب إليها المسك من الهند . ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٤٣٢ .

(١١٤) **البلاذري** ، أنساب الأشراف ، ت. ماكس سكلوسنجر ، القدس ، ١٩٣٨ ، ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ٤٣ . انظر أيضاً : **الأصفهاني** ، الأغاني ، ج ٢٢ ، ص ٣٨ .

(١١٥) **الأزرقي** ، أخبار مكة ، ج ١ ، ص ٢٥٤ . **الطبري** ، القرى ، ص ٥٢٢ . ويذكر الفاكهي أن عبدالله بن الزبير هو أول من طيب الكعبة بالطيب . انظر : **الفاكهي** ، أخبار مكة ، ج ٣ ، ص ٢٢١ .

(١١٦) **ابن عبد ربه** ، العقد الفريد ، ج ٥ ، ص ١٩٢ . **الخربوطي** ، الحضارة العربية ، ص ١٥٩ .

(١١٧) **ابن منظور** ، لسان العرب ، ج ٢ ، ص ٩ - ١٠ .

(١١٨) **الأزرقي** ، أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ٢٦٧ . **الفاكهي** ، أخبار مكة ، ج ٣ ، ص ٣٣٢ ، **السيف** ، الحياة الاقتصادية ، ص ١٥٩ .

(١١٩) **العبيدي** ، الطائف ، ص ٦٨ - ٦٩ . انظر أيضاً :

P.H Lammens, La Cite Arabe de Taif a La Vielle de L'Hegire, Paris, 1922, pp. 10 - 11, 32.

من أنه كان يُستورد إلى سوق عكاظ ويباع فيه^(١٢٠). ويبدو أن الصناعات الجلدية كصناعة النعل كانت من الصناعات النشطة بأسواق الحجاز وذلك لحاجة الحجاج إلى النعل للبسها عند تأديتهم لمناسك الحج^(١٢١). والمرجح أن بعض الحجاج كانوا يشترون النعل، بالإضافة إلى أعواد السواك، ويقدمونها كهدايا عند عودتهم لبلادهم وبعد تأديتهم لمناسك الحج^(١٢٢).

الرقيق

كانت تجارة الرقيق تجارة مربحة ومزدهرة في مواسم الحج. والواقع أن تجارة الرقيق كانت تجارة قديمة في الحجاز، إذ كان يُجلب الرقيق من الأسواق الخارجية ويعرض للبيع في المواسم، حيث يزداد الطلب عليه^(١٢٣). وتشير المصادر إلى انتعاش البيع والشراء في الرقيق خلال مواسم الحج. وكان بعض تجار الحجاز يشترون الرقيق لبيعه في موسم الحج من كل عام وكانوا يجنون من

- (١٢٠) ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ١٤٢. جواد علي، المفصل، ج ٧، ص ٣٨٠.
- وقد كانت قوافل قريش عند ظهور الإسلام تجلب من الطائف الأدم، وهي الجلود المدبوجة، وغيرها من السلع إلى مكة. انظر: أبو محمد عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، ت. مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، بيروت: دار إحياء التراث، د. ت، ج ٢، ص ٢٥٣.
- (١٢١) انظر: الأصبحي، الموطأ، ج ١، ص ٢٣٤ - ٢٣٥، ٣٣٣. كما يشير الفاكهي إلى وجود نزل خاص بالدباغين في مكة، الفاكهي، أخبار مكة، ج ٣، ص ٣٤٢.
- (١٢٢) انظر: عبدالله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا، كتاب الأخوان، ت. محمد بن عبد الرحمن طوالبه، القاهرة: دار الاعتصام، د. ت، ص ٢٣٨. ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٥، ص ٢٤٣ - ٢٤٤. انظر أيضًا: شهاب الدين بن محمد الأبهسي، المستطرف في كل فن مستظرف، ت. عبدالله أنيس الطباع، بيروت: دار القلم، ١٩٨١، ص ٤٠، حيث يورد لأحد الشعراء البيتين التاليين:
- كأن الحجيج الآن لم يقربوا مني ولم يحملوا منها سواكًا ولا نعلًا
أتوننا فما جادوا بعود أراكه ولا وضعوا في كف طفل لنا نعلًا
والأراك: هو شجر السواك الذي تتخذ من عروقه وفروعه المساويك. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج ١٠، ص ٣٨٨.
- (١٢٣) جواد علي، المفصل، ج ٧، ص ٤٥٤. آل الشيخ، الحياة الاجتماعية، ص ١٥٨. وتجدر الإشارة إلى أن أسواق الحجاز كانت رائجة بتجارة الرقيق في الجاهلية وصدر الإسلام، فقد اشترى حكيم بن حزام بن خويلد زيد بن حارثة بأربعمائة درهم من سوق عكاظ في الجاهلية. ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٥، ص ٤٥٦. كما اشترى عمر بن الخطاب من سوق ذي الحجاز عبدًا حبشيًا سنة ١١هـ. ابن عساكر، نفس المصدر، ج ٣، ص ١٠. كما كانت تجارة الرقيق رائجة في أسواق مكة، فقد اشترى عبدالله بن العباس ثلاث مولدات حجازيات من عطاء بن جبير بثلاثة آلاف دينار. ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٥، ص ١٠٥. وحول وجود الرقيق بكثرة في مكة، انظر: الشريف، دور الحجاز ص ٤٦٦ - ٤٦٧.

هذه التجارة أرباحاً عظيمة^(١٢٤) . ويرجع إزدياد الطلب على شراء الرقيق إلى حاجة الحجاج لمن يخدمهم في ركوبهم وحمل متاعهم وإعداد طعامهم^(١٢٥) .

والجدير بالملاحظة هنا ، أن تجار الرقيق كانوا يتخذون أساليب متنوعة للترغيب والترويح لهذه السلعة القيمة . فقد كانت الجوّاري تُزِين وتُعرض للبيع في مواسم الحج^(١٢٦) . كما كان يُطاف بهن في المواسم حول البيت في المسجد الحرام ، وقد أجاز الفقهاء لمن أراد أن يشتري النظر إليهن^(١٢٧) . ولا شك أن سعر الجوّاري كان يحده جودة وتنوع المعروض منه ، ولهذا يزداد الطلب عليه ، فعندما حج عبدالله بن جعفر ابن أبي طالب اشترى جارية بأربعين ألف درهم^(١٢٨) .

المهن والحرف

وجدت في مواسم الحج بعض المهن والحرف ذات العلاقة الوثيقة بفريضة الحج ومناسكه كالكرءاء ، والحلاقة والحجامة ، والجزارة ، والحطابة ، بالإضافة إلى مهن وحرف أخرى شاركت فيها المرأة .

الكرءاء

كانت مهنة كراء الرواحل^(١٢٩) ، وهي الإبل السريعة والقوية ، من المهن الرائجة في مواسم الحج ، فقد كانت الراحلة هي الوسيلة المفضلة عند الحجاج لنقلهم إلى مكة لتأدية فريضة الحج^(١٣٠) . وقد تميزت الرواحل بتحملها للجوع والعطش خلال قطعها للمسافات الطويلة والمتباعدة .

(١٢٤) الأصبهاني ، المدونة ، ج ٢ ، ص ٩٤ . السيف ، الحياة الاقتصادية ، ص ١٠٢ .

(١٢٥) ابن تيمية ، شرح العمدة ، ج ١ ، ص ١٥٠ .

(١٢٦) ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٦ ، ص ٢٢٧ .

(١٢٧) انظر : الفاكهي ، أخبار مكة ، ج ١ ، ص ٣١٧ ، حيث يذكر أن أحد فقهاء مكة وهو عطاء بن أبي رباح (٢٧ - ١١٥هـ) أجاز النظر إلى الجوّاري اللاتي يطاف بهن حول البيت للبيع لمن أراد أن يشتريهن . انظر

أيضاً : القرطبي ، أحكام القرآن ، ج ١٢ ، ص ٢٢٧ .

(١٢٨) الأصبهاني ، الأغاني ، ج ١٧ ، ص ١٧٥ . ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ١ ، ص ٢٤١ - ٢٥٠ .

ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٧ ، ص ٣٤١ . السيف ، الحياة الاقتصادية ، ص ١٠٣ .

(١٢٩) الرواحل : جمع راحلة وهي كل بعير نجيب ، سواء كان ذكراً أو أنثى . ابن منظور ، لسان العرب ، ج ١١ ، ص ٢٧٧ .

(١٣٠) عن حج المسلمين على الرواحل ، انظر : ابن حجر ، فتح الباري ، ج ٣ ، ص ٣٨٠ - ٣٨١ . ابن

عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٧ ، ص ٣٧٤ . ابن تيمية ، شرح العمدة ، ج ١ ، ص ١٤٨ .

وكان من يتولى مهنة الكراء يعرف باسم المُكاري ، وهو الذي يؤجر دابته من الإبل وغيرها مقابل ثمن معين^(١٣١) . وتشير المصادر إلى رواج مهنة الكراء وإزدياد الطلب عليها في مواسم الحج ، فقد كانت الإبل تُكرى للحج إلى مكة وتدفع زكاتها بالمدينة^(١٣٢) . وأيضاً تُكرى للحجاج الشام عند مغادرتهم لمكة بعد إنقضاء موسم الحج^(١٣٣) . وقد ترتب على إنتعاش مهنة الكراء في مواسم الحج ، زيادة الطلب على شراء الإبل وإزدهار هذه التجارة في أسواق الحجاز . فقد كان تجار الإبل يتجهون لتلك الأسواق كسوق المدينة لبيع إبلهم والتكسب منها^(١٣٤) .

ويلاحظ أن وسيلة المواصلات هذه ، وهي الإبل ، قد حصل تطور في كيفية استعمالها وركوبها ، فإذا كان المسلمون في بداية الإسلام يحبون أفراداً على الرواحل والزوامل ، وهي الإبل وعامة الدواب^(١٣٥) ، فقد تطور الأمر بعد ذلك إلى إتخاذ المحامل وهما شقان على الإبل يُحمل فيهما الشخصين^(١٣٦) . وكانت المحامل تؤجر إلى مكة ، ويعتبر الحجاج بن يوسف أول من حج بالمحامل إلى مكة^(١٣٧) . كما كانت المحامل تؤجر في الشام للحج ، فعندما حج إياس بن زيد^(١٣٨) ، وغيلان الدمشقي^(١٣٩) من الشام ، استأجر لهما المُكاري محملاً لحجهما^(١٤٠) .

(١٣١) ابن منظور ، لسان العرب ، ج ١٥ ، ص ٢١٨ . جواد علي ، المفصل ، ج ٧ ، ص ٥١٠ .
(١٣٢) أبو عبيد القاسم بن سلام ، كتاب الأموال ، ت. محمد خليل هراس ، ط ٣ ، القاهرة : دار الفكر ، ١٩٨١ . ص ٣٤٣ . السيف ، الحياة الاقتصادية ، ص ١٧٨ .

(١٣٣) الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٢٢ ، ص ٣٢٨ .

(١٣٤) المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٢٠٤ . الذهبي ، تاريخ الإسلام (٦١ - ٨٠هـ) ، ص ٢١٣ .
(١٣٥) الزوامل : هي الإبل التي يحمل عليها الطعام والمتاع ، وقيل هي الدواب عامة التي يعمل عليها من الإبل وغيرها . انظر : ابن منظور لسان العرب ، ج ١١ ، ص ٣١٠ .

(١٣٦) ابن منظور ، المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ١٧٨ .

(١٣٧) الفاكهي ، أخبار مكة ، ج ١ ، ص ٤٠٢ . ج ٣ ، ص ٢٣٤ . انظر أيضاً : الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ، الأوائل ، ط ١ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٧ ، ص ٢١٦ - ٢١٧ . عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، المعارف ، ت. ثروت عكاشة ، ط ٤ ، القاهرة : دار المعارف ، د.ت ، ص ٥٥٣ .
(١٣٨) إياس بن زيد : أحد التابعين ، توفي سنة ١٢٢هـ . انظر ترجمته عند : ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٣ ، ص ١٧٧ - ١٨٨ .

(١٣٩) غيلان الدمشقي : زعيم فرقة القدرية بالشام ، وقد صلب في دمشق في خلافة هشام بن عبد الملك . انظر :

عبد القادر بن طاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم ، ط ٣ ، بيروت : دار الآفاق

الجديدة ، ١٩٧٨ ، ص ١٩٣ - ١٩٤ . الذهبي ، تاريخ الإسلام (١٠١ - ١٢٠هـ) ، ص ٤٤١ .

وعن آراء غيلان ومعتقداته ، انظر : حسين عطوان ، الفرق الإسلامية في بلاد الشام في العصر الأموي ،

ط ١ ، د.م : دار الجيل ، ١٩٨٦ ، ص ٣٤ - ٤٠ .

(١٤٠) ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٣ ، ص ١٨٠ .

ومما لاشك فيه أن تعاليم الإسلام المتعلقة بالحج كان لها دور في رواج مهنة الكراء ، إذ سهلت على المُكاريين تأدية مهنتهم في مواسم الحج حيث أجاز الإسلام حج من يُكرى الرواحل إذا أدى جميع مناسك الحج^(١٤١) . ولا تفيدنا المصادر المتاحة عن أجرة الراحلة المُكرية إلى مكة خلال مواسم الحج ، ولكن يبدو أن السعر كان يحدده بعد أو قصر المسافة من مكة وإليها . ويلاحظ هنا أن بعض المسلمين كان لا يجهذ المساومة لإنقاص الأجرة في الكراء إلى مكة لأنهم كانوا يعتبرون ما يدفعونه كأجرة مما يتقرب به إلى الله ، ومن هؤلاء جابر بن زيد الذي كان لا يساوم في الكراء إلى مكة^(١٤٢) .

وبالإضافة إلى مهنة المُكاري الذي يؤجر الإبل ، فقد وجد في هذه المواسم من يُكرى نفسه لخدمة الحجاج . وقد أجاز الإسلام حج من يُكرى نفسه إذا أدى جميع مناسك الحج^(١٤٣) . ولا شك أن وجود هذه المهنة كان راجعاً لعجز بعض الحجاج مالياً عن تأدية فريضة الحج . ويلاحظ هنا أن الإسلام قد رفع عن المسلمين التأثم والتخرج من عدم المقدرة على الحج مالياً ، وذلك بأن قيد فريضة الحج بالاستطاعة . وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ الآية^(١٤٤) . فالاستطاعة شرط من شروط هذه الفريضة .

وقد فُسرت الاستطاعة بالمقدرة على الزاد والراحلة^(١٤٥) . وهي تتحقق بالمقدرة البدنية والمالية التي تعين المسلم على تأدية هذا الركن الإسلامي ، فمن كان عاجزاً بدنياً أعفاه الإسلام من أداء هذه الفريضة . ومن لم يملك المال فإنه يُكره له أن يحج بالسؤال واستجداء الناس ، بل حجب له الإسلام أن يتكسب حتى يحصل على الزاد والراحلة ، وذلك بأن يعمل بأي صناعة ومهنة وهو في طريقه إلى الحج ، أو يُكرى نفسه للحجاج ، بأن يقوم بإعداد طعامهم وحمل متاعهم عند نزولهم ورحيلهم ، مقابل ما يقدم له من غذاء^(١٤٦) .

(١٤١) انظر : أبو داود ، السنن ، ج ٢ ، ص ٣٥٠ - ٣٥١ . الطبري ، جامع البيان ، ج ٢ ، ص ٢٨٢ ، ٢٨٥ . الطبري ، القرى ، ص ٧٩ . سابق ، فقه السنة ، ج ١ ، ص ٦٤١ .

(١٤٢) ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، ج ٣ ، ص ٢٣٧ . الطبري ، القرى ، ص ٣٣ .

(١٤٣) أبو داود ، السنن ، ج ٢ ، ص ٣٥١ . الفاكهي ، أخبار مكة ، ج ١ ، ص ٣٧٩ . ابن تيمية ، شرح العدة ، ج ٢ ، ص ٢٥١ . الطبري ، القرى ، ص ٧٩ . سابق ، فقه السنة ج ١ ، ص ٤٤١ - ٤٤٢ .

(١٤٤) سورة آل عمران ، الآية ٩٧ .

(١٤٥) الطبري ، جامع البيان ، ج ٤ ، ص ١٥ - ١٧ . الزمخشري ، الكشاف ، ج ١ ، ص ٣٩٠ . الفاكهي ، أخبار مكة ، ج ١ ، ص ٣٧٩ .

(١٤٦) انظر : ابن تيمية ، شرح العدة ، ج ١ ، ص ١٤٤ - ١٥٠ .

الحلاقة والحجامة

كانت الحلاقة والحجامة من المهن السائدة في مواسم الحج . أما عن مهنة الحلاقة فتشير المصادر إلى إنتعاش هذه المهنة في منى بعد التحلل من الإحرام^(١٤٧) ، وذلك لأن حلق الشعر من مناسك الحج ، يقول تعالى : ﴿ وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ﴾ الآية^(١٤٨) . ولهذا فقد كان الحلاقون يوجدون بكثرة في منى أيام التشريق ، حيث يقومون بحلق رؤوس المسلمين^(١٤٩) . وكان المتعارف عليه عند الحلاقين أن لا يساوم في سعر الحلاقة وذلك لأن حلاقة الشعر نسك من مناسك الحج يتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى^(١٥٠) . وقد ارتبطت مهنة الحلاقة بمهنة الحجامة حيث يبدو أن الذي يقوم بالمهنتين شخص واحد^(١٥١) . والحجامة هي مص دم الرأس بآلة كانت تسمى المحجم يُجمع فيها الدم^(١٥٢) . وكانت هذه المهنة سائدة في منى بعد التحلل من الإحرام وذلك لأن الدم يفسد الحج . وقد كانت الحجامة وسيلة من وسائل التداوي والعلاج في تلك الفترة التاريخية^(١٥٣) .

الجزارة

كانت مهنة الجزارة من المهن المزدهرة وذلك لعلاقتها بكثرة ما ينحر من إبل والبقر والغنم في أيام الحج بمكة ومنى . وقد كان الجزارون يقومون بنحر هدي الحجاج بمنى ويأخذون عليه أجرًا . ومما يدل على ذلك أنه عندما حج عبدالله بن عمر بن الخطاب أعطى أحد الجزارين الذي قام بنحر هديه دراهم أجرة له^(١٥٤) . ولم تقتصر مهنة الجزارين على نحر الهدي والأضاحي ، بل شملت أيضًا ذبح الإبل والأغنام التي تقدم طعامًا للحجاج خلال موسم الحج ، فقد كان لمعاوية بن أبي سفيان دار

(١٤٧) انظر : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٤ ، ص ١٥٤ - ١٥٥ . السيف ، الحياة الاقتصادية ، ص ١٦٨ .

(١٤٨) سورة البقرة ، الآية ١٩٦ .

(١٤٩) حلق عبدالله بن عمر رأسه على المروة . ابن سعد ، الطبقات ، ج ٤ ، ص ١٥٤ - ١٥٥ . وحلق معاوية

بن أبي سفيان رأسه بمنى . ابن عساکر ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٧ ، ص ٤٠٩ . كما حلق الوليد بن

عبد الملك رأسه بعد أن رمى الجمرة . الأصمعي ، الموطأ ، ج ١ ، ص ٣٢٩ .

(١٥٠) الطبري ، القرى ، ص ٤٥٤ .

(١٥١) انظر : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٤ ، ص ١٥٥ . الطبري ، القرى ، ص ٤٥٤ - ٤٥٥ .

(١٥٢) ابن منظور ، لسان العرب ، ج ١٢ ، ص ١١٦ - ١١٧ . جواد علي ، المفصل ، ج ٧ ، ص ٧

٥٨٣ - ٥٨٤ .

(١٥٣) ما زالت مهنة الحجامة موجودة حتى اليوم كوسيلة من وسائل التداوي . انظر : مجلة البمامة ، عدد ١١٦١ ،

الرياض ١٩٩١ ، ص ٢٨ - ٣١ .

(١٥٤) الطبري ، القرى ، ص ٥٧٠ .

بمكة فيها قدور من نحاس كانت الإبل والأغنام تذبح وتطبخ فيها ثم تقدم طعاماً للحجاج^(١٥٥). ومما يدل على انتعاش مهنة الجزارة بمكة وجود مكان خاص بالجزارين يقيمون به يسمى زقاق الجزارين^(١٥٦).

الحطابة

كانت مهنة الحطابة من المهن الرائجة بمكة. ويبدو أن هذه المهنة كانت تنتعش في مواسم الحج وذلك لكثرة الطلب على حطب الوقود لطبخ وإعداد ما ينحر من الهدي والأضاحي، وأيضاً ما يذبح طعاماً للحاج من إبل وغنم خلال مواسم الحج. وكان الحطابون يقومون بجلب الحطب من بعض نواحي الحجاز المشهورة بحطب الوقود^(١٥٧). ومما يؤكد إزدهار مهنة الحطابة وجود سوق لبيع الحطب بمكة^(١٥٨). ومما هو جدير بالملاحظة هنا أن تعاليم الإسلام المتعلقة بالحج كان لها دور في رواج مهنة الحطابة. فقد أجاز الإسلام لمن لهم منفعة وحاجة تتكرر، كالحطابين، دخول مكة بدون إحرام^(١٥٩). كما أباح الإسلام للحطابين أن يبيتوا بمكة ليالي منى^(١٦٠). ويبدو أن ذلك راجع لحاجة الحطابين إلى التنقل بين مكة ومنى لعرض ما لديهم من الحطب الذي يزداد الطلب على شرائه في أيام عيد الأضحى بمكة ومنى. ولم تكن إباحة دخول مكة بدون إحرام مقصورة على الحطابين فقط، بل شملت أيضاً أصحاب المهن والحرف الأخرى، كالحمالين والرعاة وغيرهم، وذلك لارتباط مصالحهم بمصالح الناس، ولأنه يصعب عليهم كلما أرادوا دخول مكة الإحرام^(١٦١).

حرف ومهن أخرى

وجدت في مواسم الحج حرف ومهن أخرى - غير السابق ذكرها - ومن هذه الحرف حرفة الخرازة حيث يقوم صاحبها بصقل الفصوص التي تكون من جيد الجواهر أو من رديته

(١٥٥) الفاكهي، أخبار مكة، ج ٣، ص ٢٨٧. الأزرق، أخبار مكة، ج ٢، ص ٢٣٧. الطبري، القرى، ص ٤٩٣.

(١٥٦) الفاكهي، أخبار مكة، ج ٣، ص ٢٧٤. الأزرق، أخبار مكة، ج ٢، ص ٢٣٨. الطبري، القرى، ص ٢٥٨.

(١٥٧) جواد علي، المفصل، ج ٧، ص ٨٦ - ٩٣.

(١٥٨) الفاكهي، أخبار مكة، ج ٣، ص ١٥٤. الأزرق، أخبار مكة، ج ٢، ص ٢٣.

(١٥٩) الفاكهي، أخبار مكة، ج ١، ص ٤١٣، ج ٣، ص ١٧٤ - ١٧٥. ابن تيمية، شرح العمد، ج ١، ص ٣٣٨. الطبري، القرى، ص ٢٥٩.

(١٦٠) ابن حجر، فتح الباري، ج ٣، ص ٥٧٨.

(١٦١) حول إباحة دخول مكة بغير إحرام. انظر: الفاكهي، أخبار مكة، ج ١، ص ٤١٣. ابن تيمية، شرح العمد، ج ١، ص ٣٥٢ - ٣٥٣. الطبري، القرى، ص ٢٥٩.

كالخجارة^(١٦٢) . وتستعمل هذه الفصوص للزينة وهي تحلى عادة ما تكون في العقود أو الخواتم حيث تعمل من الأحجار الملونة الخضراء أو الحمراء من الجيد أو الرديء منها^(١٦٣) . وقد كانت المرأة تبيع الحرز بسوق الجحفة^(١٦٤) ، وهي قرية على طريق المدينة من مكة ، وتعتبر ميقات لحجاج الشام ومصر^(١٦٥) . وفي منى ، التي كانت تزدهم بالحجيج أيام المواسم ، كانت النساء تمتن غسل ملابس الحجاج ، حيث كانت هذه المهنة وسيلة لمعاشهن^(١٦٦) .

العقار ومردوده المادي

يتمثل انتعاش العقار في بيع أو إيجار الدور والخوانيت ، ذات المردود المالي الكبير ، الذي يحصل عليه أصحاب هذه الأملاك في مواسم الحج . ولا شك أن قدوم الآلاف من الحجاج سنوياً إلى الحجاز كان له أثره في إنعاش كراء العقار من دور وخوانيت في مكة والمدينة أيام الموسم . وقد كان الحجاج يستأجرون دور مكة للإقامة بها ، كما كان التجار يستأجرون الخوانيت لعرض بضاعتهم طلباً للكسب والربح خلال وجود الحجاج بأعداد كبيرة في تلك الأوقات .

وتشير المصادر إلى ازدهار كراء الدور والخوانيت بمكة ، فقد كان ابن أبي ذئب^(١٦٧) يؤجر داره ، وكان كراء داره بمكة يأتيه بين الصفا والمروة^(١٦٨) . كما كانت حوانيت مكة تُكرى أيام موسم الحج بالدنانير الكثيرة^(١٦٩) . وبالإضافة إلى الكراء ، ازدهر بيع العقار بمكة ، وكان ذا مردود مالي كبير ، فقد اشترى الخليفة معاوية بن أبي سفيان دار الندوة بمبلغ مائة ألف درهم ، وكان ينزلها إذا حج ، واستمرت تُزلُّ للخلفاء الأمويين من بعده^(١٧٠) . وعلى الرغم من أن كراء الدور بمكة كان

(١٦٢) ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٥ ، ص ٣٤٤ - ٣٤٥ .

(١٦٣) انظر :

E.L. Lane, Arabic - English Lexicon, Cambridge, 1984, Vol. 1, p. 721 .

(١٦٤) الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٢٢ ، ص ٣١٣ .

(١٦٥) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١١١ . انظر : الحربي ، كتاب المناسك ، ص ٤٥٧ - ٥٦٩ .

(١٦٦) عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، عيون الأخبار ، بيروت : دار الكتاب العربي ، د.ت ، ج ١ ، ص ٢٤٥ .

(١٦٧) ابن أبي ذئب : هو محمد بن عبدالرحمن بن المغيرة بن الحارث ، ولد سنة ٨٠هـ ، وتوفي سنة ١٥٩هـ . انظر :

الذهبي ، تاريخ الإسلام (١٤١ - ١٦٠هـ) ، ص ٦٠٠ - ٦٠٤ .

(١٦٨) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٥٧ . السيف ، الحياة الاقتصادية ، ص ٢٩١ . انظر أيضاً : عمرو بن بحر

الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، ت. عبدالسلام هارون ، القاهرة : مكتبة الخانجي ، د.ت . ج ٢ ، ص ١٣٠ .

(١٦٩) الأزرق ، أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ .

(١٧٠) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٩ . ج ٢ ، ص ١١٠ . ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٤ ، ص

رائجًا ومربحًا لمن يزاوله ، فقد كان هناك جدل بين الفقهاء حول كراء بيوت مكة خلال مواسم الحج ، فقد أباحه البعض وكرهه البعض الآخر^(١٧١) . وفي خلافة عمر بن عبدالعزيز (٩٩ - ١٠١هـ) ، أمر بنهي أهل مكة أن يأخذوا على بيوتهم أجرًا^(١٧٢) . وكتب إلى عامله على مكة يأمره بأن لا يكرى بمكة شيئًا^(١٧٣) . وبالرغم من ذلك ، فقد كان الكراء موجودًا ، حيث كان الناس يتكاثرون خفية ، أو كما قال الأزرقى : «يدسون إليهم الكراء سرًا ويسكنون»^(١٧٤) .

ومن ناحية أخرى كان الكراء مصدر دخل مالي كبير لأهالي المدينة ، التي كان يقصدها الحجاج لزيارة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، بالإضافة إلى مشاهدة معالم المدينة الإسلامية . وقد كان بعض أهالي المدينة يؤجرون الدور لسكنى الحجاج والتجار . ومما يدل على أهمية الكراء وأنه ذو مردود مالي كبير ، مشاركة بعض الخلفاء الأمويين في تأجير دور المدينة ، فقد كانوا يستثمرون أموالهم في شراء العقار وبنائه ، ومن ثم تأجيره . وكان عائد الاستثمار هذا مجزيا ومربحا ، فقد كان لمعاوية بن أبي سفيان داران بسوق المدينة وقد ضرب عليهما الخراج^(١٧٥) . كما بنى هشام بن عبد الملك دارًا بسوق المدينة ، وكان يقيم فيها التجار ويؤخذ منهم الكراء ، واستمر ذلك حتى وفاة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٧هـ^(١٧٦) .

(١٧١) حول اختلاف الفقهاء في كراء بيوت مكة خلال موسم الحج ، انظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٥٦ - ٥٧ . ابن حجر ، فتح الباري ، ج ٣ ، ص ٤٥٠ - ٤٥٢ . الفاكهي ، أخبار مكة ، ج ٣ ، ص ٢٤٣ - ٢٥٩ . الأزرقى ، أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ١٦٢ - ١٦٦ . المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٧٥ . الطبري ، القرى ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ . وانظر تفسير الطبري والزنجشري لقوله تعالى : ﴿إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد﴾ الآية . سورة الحج الآية ٢٥ . الطبري ، جامع البيان ، ج ١٧ ، ص ١٣٦ - ١٣٨ . الزنجشري ، الكشف ، ج ٣ ، ص ١٥٠ - ١٥١ .

(١٧٢) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ، ص ٣٦٤ . البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٦٥ ، الطبري ، القرى ، ص ٢٥٩ .

(١٧٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٥٦ . الفاكهي ، أخبار مكة ، ج ٣ ، ص ٢٤٩ . الطبري ، القرى ، ص ٢٤٩ .

(١٧٤) الأزرقى ، أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ١٧٤ . انظر أيضًا : الفاكهي ، أخبار مكة ، ج ٣ ، ص ٢٥٠ . (١٧٥) أبو زيد عمر بن شبّه ، تاريخ المدينة المنورة ، ت. فهم محمد شلتوت ، القاهرة : مكتبة ابن تيمية . د.ت. ، ج ١ ، ص ٢٧٠ - ٢٧١ . ويُقصد بضرب عليهما الخراج أنه اشتراهما فاستغللها زمامًا أو أجرهما . انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، ج ١ ، ص ٢٥٢ .

(١٧٦) ابن شبّه ، تاريخ المدينة ، ج ١ ، ص ٢٧٠ - ٢٧١ . انظر أيضًا : محمد حسن شراب ، المدينة في العصر الأموي ، ط ١ ، دمشق : مؤسسة علوم القرآن ، ١٩٨٤ ، ص ٣٣٧ .

المعاملات المالية

على الرغم من قصر مواسم الحج فقد كانت فترة رخاء اقتصادي ، تتسم بنشاط كبير في المعاملات المالية . فقد تعددت وتنوعت الأنشطة المالية لقدم الآلاف من الحجاج والتقاء مصالح الناس الاقتصادية في هذه المواسم العظيمة . فليس غريباً والحالة هذه إذا وجدت أنواع من المعاملات المالية والتجارية ، كقضاء الدين ، والمراجعة التجارية ، وسيولة ووفرة الأموال ، والادخار والاقتراض . وليس أدل على أهمية مواسم الحج من أنها كانت مناسبة لإعلانية لسداد حقوق الدائنين ، فقبل أن يقسم عبدالله بن الزبير وورث والده كان ينادي بالموسم أربع سنين قائلاً : «ألا من كان له على الزبير دين فليأتنا فلنقضيه» (١٧٧) .

والملاحظ أن مواسم الحج كانت فرصة للتشاور والمراجعة في الأمور التجارية والمالية . فقد كان سفيان بن سعيد الثوري يستثمر رأس ماله وهو مبلغ مائتي دينار ، حيث يوزعه أجزاء على بعض رفقاءه ليتاجروا له ، ثم يقابلهم في موسم الحج فيحاسبهم ويأخذ ما ربحوا (١٧٨) .

كما كان بعض الحجاج من ميسوري الحال يساهمون في رفع العوز والحاجة عن أهل مكة ، ففي إحدى السنوات التي حج فيها الحجاج بن يوسف الثقفي أصابه وأهل مكة مجاعة فاحتاج للطعام ، فلم يجد بداً من أن يستدين من بعض أعيان أهل العراق ممن قدموا للحج إبلًا وأغنامًا ثم قسمها على أهل مكة (١٧٩) . لقد كانت مواسم الحج تتميز بسيولة في الأموال ووفرة في تداولها ، حيث كانت تنصب على إقليم الحجاز من كافة أرجاء الدولة الإسلامية . وقد كانت هذه الأموال تأتي نقداً مع الحجاج وبطرق شتى ، حتى أن الدعاة العباسيين في أواخر الدولة الأموية كانوا يلتقون بصاحب الدعوة العباسية ، إبراهيم بن محمد بن علي بن عبدالله العباسي (١٨٠) في مكة خلال مواسم الحج حيث يحملون إليه المال ويأخذون منه الأوامر ، وقد وصل ما حملوه له في أحد مواسم الحج -

(١٧٧) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٣ ، ص ١٠٩ . الأصبهاني ، حلية الأولياء ، ج ١ ، ص ٩١ . ابن عدي ، العقد الفريد ، ج ٥ ، ص ٧٣ . ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، ج ١ ، ص ٣٤٨ . ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٥ ، ص ٣٧١ .

(١٧٨) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٦ ، ص ٣٧٢ . الذهبي ، تاريخ الإسلام (١٦١ - ١٧٠ هـ) ، ص ٢٣٥ .

(١٧٩) الفاكهي ، أخبار مكة ، ج ٣ ، ص ١٣٧ - ١٣٨ .

(١٨٠) هو إبراهيم بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب ، عهد إليه والده محمد بالسير بالدعوة ، وقد قبض عليه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية وقتله سنة ١٣٢ هـ . انظر : الطبري ، تاريخ ، ج ٧ ، ص ٤٣٥ . الذهبي ، تاريخ الإسلام ، (١٢١ - ١٤٠ هـ) ، ص ٣٦٧ - ٣٦٨ .

إلى مبلغ عشرة آلاف دينار ومائتا درهم^(١٨١) .

وقد بلغ من اهتمام المسلمين بأداء فريضة الحج أن بعضهم كان يدخر ويوفر الأموال ، حيث يمتنع الفرد المسلم عن إنفاق نسبة من دخله ، وتصبح جزءاً من مدخراته يتطلع لإنفاقها على تكاليف فريضة الحج .

وتشير المصادر إلى هذا الميل للإدخار بين المسلمين ؛ فقد كان سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب^(١٨٢) يقتطع جزءاً من عطائه ويعدده للحج^(١٨٣) . كما ادخر الليث بن سعد^(١٨٤) ثلاثمائة دينار وأعدّها للحج^(١٨٥) . ومع أن الإسلام اشترط لوجوب الحج الإستطاعة ، وهي المقدرة المالية والبدنية ، ونهى المسلم أن يقترض للحج ، بل فضل قضاء الدين على الحج^(١٨٦) ، فقد بلغ من حرص المسلمين على تأدية هذه الفريضة أن بعضهم كانوا يستدينون فيحجون ويعتَمرون . فقد كان محمد بن المنكدر^(١٨٧) يستدين ويحج^(١٨٨) . ويذكر ابن سعد أن بعض المسلمين كان يموت ولا يُقضى عنه دينه الذي أنفق على تكاليف فريضة الحج^(١٨٩) . لقد كان في الحج إلى مكة مشقة مالية وجسمية ، ولهذا اعتبره بعض المسلمين من أفضل أعمال الخير ، يقول جابر بن زيد : « نظرت في أعمال البر فإذا الصلاة تجهد البدن ولا تجهد المال ، والصيام مثل ذلك ، والحج يجهد المال والبدن : فرأيت الحج

(١٨١) أبي حنيفة بن داوود الدينوري ، الأخبار الطوال ، بيروت : دار الفكر الحديث ، ١٩٨٨ ، ص ٢٤٣ .

الذهبي تاريخ الإسلام (١٢١ - ١٤٠هـ) ص ٥٨٢ - ٥٨٣ . عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي للدولة

العربية : عصر الخلفاء الأمويين ، ط ٤ ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧١ ، ج ٢ ، ص ٣٢٧ .

(١٨٢) هو أحد فقهاء المدينة توفي سنة ١٠٦هـ . انظر ترجمته عند ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ، ص ١٩٥ -

٢٠٢ . الذهبي ، تاريخ الإسلام (١٠١ - ١٢٠هـ) ، ص ٨٨ - ٩٣ .

(١٨٣) ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٦ ، ص ٥٥ .

(١٨٤) الليث بن سعد (٣ ، ٩٤ - ١٦٥هـ) : هو مفتي مصر في زمانه وقد كان ثقة كثير الحديث . انظر : ابن

سعد ، الطبقات ، ج ٧ ، ص ٥١٧ .

(١٨٥) ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، ج ٤ ، ص ٣١١ .

(١٨٦) نهي الرسول صلى الله عليه وسلم رجلاً أن يقترض للحج . انظر : الطبري : القرى ، ص ٢٦٧ ، كما يذكر

ابن تيمية بأن وجوب قضاء الدين متقدم على وجوب الحج . انظر : ابن تيمية ، شرح العمد ، ج ١ ، ص

١٥٢ .

(١٨٧) محمد بن المنكدر : هو أحد الزهاد والعابدين توفي سنة ١٣٠هـ . انظر : الذهبي ، تاريخ الإسلام (١٢١ -

١٤٠هـ) ، ص ٢٥٣ - ٢٥٨ .

(١٨٨) ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٤٦١ . الفاكهي . أخبار مكة ، ج ١ ، ص ٤١٢ . الأصبهاني ، حلية الأولياء ،

ج ٥ ، ص ٦ . الذهبي ، تاريخ الإسلام (١٢١ - ١٤٠هـ) ، ص ٢٥٥ .

(١٨٩) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ، ص ١٢٨ .

أفضل من ذلك كله. » (١٩٠).

إنفاق الأمويين

إن معاناة الحاج وتكبده المشقة البدنية والعجز المالي خلال تأديته لمناسك الحج لم تغرب عن بال الأمويين ، فقد ساهم بعض الأمويين خلفاءً وأفراداً في الإنفاق على الحاج . وقد كان إنفاق الأمويين متمثلاً في إطعام الحاج وسقايته وفك ضائقته المالية . وكان إطعام الحاج أيام المواسم في مكة والمشاعر عادة موجودة عند العرب قبل الإسلام وهي وظيفة الرفادة ، وقد استمرت هذه العادة بعد الإسلام (١٩١).

وفي العصر الأموي اهتم بعض الخلفاء الأمويين بإطعام الحاج وصرف المال على هذه العادة الطيبة . فقد كان للخليفة معاوية بن أبي سفيان دوراً بمكة أعدها لإطعام الحاج ومنها دار اشتراها معاوية حيث كانت الجزر والغنم تذبح وتطبخ فيها وتقدم للحاج طعاماً أيام الموسم (١٩٢) . وعندما حج الوليد بن عبد الملك سنة ٩١ هـ ، أطعم الحاج بعرفة ونصب لهم الموائد (١٩٣) .

كما كان الخلفاء في الدولة الأموية يأمرّون ولائهم على مكة بإطعام الحاج ويصرفون الأموال لهذا الغرض . فعندما أراد الخليفة سليمان بن عبد الملك تأدية فريضة الحج سنة ٩٧ هـ ، أمر واليه على مكة بأن ينحر جزراً ويقسمها ، وأن يعد طعاماً ويدعو إليه القادمين للحج (١٩٤) . كما كان الخليفة عمر بن عبدالعزيز ينفق الأموال على إطعام الحاج (١٩٥) .

والحق إن اهتمام الأمويين بإطعام فقراء الحاج في مواسم الحج يمثل صورة للتكافل الاجتماعي الذي كانت توليه الدولة الأموية لفقراء المسلمين . كما أنه وليد للظروف الصعبة التي كان يعانيها الحاج للحصول على المواد الغذائية . حيث كان الطريق إلى مكة في تلك الفترة التاريخية شاقاً وطويلاً ، كما أن الحاجاز كان فقيراً في موارده الغذائية .

(١٩٠) ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، ج ٣ ، ص ٢٣٧ . انظر أيضاً : الفاكهي ، أخبار مكة ، ج ١ ، ص ٤١٢ .

(١٩١) الأزرقي ، أخبار مكة ، ج ١ ، ص ١٩٥ ، ج ٢ ، ص ١٠٩ .

(١٩٢) الفاكهي ، أخبار مكة ، ج ٣ ، ص ٢٨٧ . الأزرقي ، أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ . الطبري ، القرى ، ص ٤٩٣ .

(١٩٣) اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

(١٩٤) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ . انظر أيضاً : الطبري ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٥٢٩ . المالكي

« طريق حجاج الشام ومصر ... » . ص ١٠ .

(١٩٥) الأصبهاني ، حلية الأولياء ، ج ٥ ، ص ٣٠٦ .

أما فيما يتعلق بسقاية الحجاج أيام مواسم الحج فقد كانت - أيضاً - عادة عند العرب قبل الإسلام . ويبدو أن وظيفة السقاية كانت وظيفة مُكلفة مالياً لمن يتولاها ويقوم بها^(١٩٦) . وذلك لإرتباط هذه الوظيفة بإستيراد الزبيب من الطائف قبل موسم الحج الذي كان ينبذ أي يُحلى به الماء الذي يُقدم شرباً للحجاج^(١٩٧) . ولقد إستمرت وظيفة السقاية بعد الإسلام ، وفي العصر الأموي كان يتولاها عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب^(١٩٨) . ثم وليها بعده ابنه علي بن عبدالله بن العباس^(١٩٩) ، الذي كان يجلب الزبيب من الطائف ويحلى به الماء ويسقيه للحجاج^(٢٠٠) . ولم تقتصر سقاية الحاج على بني العباس ، بل قام بها أيضاً بنو أمية . فقد تولى معاوية بن أبي سفيان سقاية الحجيج بالمحصب^(٢٠١) ، ثم سقاهم في منى^(٢٠٢) . كما كان الخليفة هشام بن عبدالمملك يسقي الحجاج في مواسم الحج أسواقاً محمضة ومحلاة^(٢٠٣) .

والملاحظ أن بعض أفراد البيت الأموي شارك في سقاية الحجيج . فقد كان لرملة بنت عبدالله

(١٩٦) يشير ابن عساكر إلى كلفة وظيفة السقاية حيث يذكر بأن أبا طالب ، أخو العباس بن عبدالمطلب ، كان يستدين لسقاية الحاج في الجاهلية ، وأنه قد استدان في أحد المواسم مبلغ عشرة آلاف درهم وفي الموسم الذي تلاه مبلغ أربعة عشر ألف درهم . ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٧ ، ص ٢٣٠ .

(١٩٧) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٦٨ . الأزرق ، أخبار مكة ، ج ١ ، ص ١١٤ - ١١٥ . والنبد هو ماء مُحلى بزبيب بحيث يطيب طعمه . انظر : يحيى بن شرف الدين النووي ، صحيح مسلم ، ١٦ ، بيروت : دار إحياء التراث ، د.ت. ج ٩ ، ص ٦٤ . وقد كان يحتاج إلى الزبيب لتحلية مياه الآبار بمكة والتي تزداد فيها نسبة الملوحة . انظر : صقر ، الطائف ، ص ٤٣ . ومما يدل على أهمية الزبيب أن قوافل قریش كانت تأتي محملة بالزبيب وغيره من السلع من الطائف عند ظهور الإسلام . ابن هشام ، السيرة ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ . (١٩٨) عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب بن هشام : هو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان فقيهاً في الدين وتفسير القرآن . ولد قبل الهجرة بستين ، وتوفي سنة ٦٨ هـ . انظر : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٢ ، ص ٣٦٥ - ٣٧٢ . الذهبي ، تاريخ الإسلام (٦١ - ٨٠ هـ) ، ص ١٤٨ - ١٦١ .

(١٩٩) علي بن عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب بن هشام هو جد خلفاء بني العباس ، ولد سنة ٤٠ هـ ، وتوفي سنة ١١٨ هـ وقيل ١١٧ هـ . انظر ترجمته عند ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ، ص ٣١٢ - ٣١٤ . الذهبي ، تاريخ الإسلام (١٠١ - ٢٢٠) ، ص ٤٢٨ - ٤٢٩ .

(٢٠٠) الأزرق ، أخبار مكة ، ج ١ ، ص ١١٤ - ١١٥ . ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٧ ، ص ٢٤٠ .

(٢٠١) المحصب : هو موضع فيما بين مكة ومزدلفة ، وسمي بالمحصب من الحصاء التي في أرضه . انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٦٢ . ابن منظور ، لسان العرب ، ج ١ ، ص ٣١٩ .

(٢٠٢) الأزرق ، أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ٦٠ .

(٢٠٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ . السيف ، الحياة الاقتصادية ، ص ٢٤٩ .

بن عبد الملك بن مروان وزوجها عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان^(٢٠٤) دار في مكة وكان في دهليز^(٢٠٥) هذا الدار شراب من أسوقة محلاة ومحمضة كانت تُسقى للحجاج في مواسم الحج ، وقد استمرت هذه السقاية حتى نهاية الدولة الأموية عام ١٣٢هـ^(٢٠٦) .

ولم يكتف الأمويون بسقاية الحاج ، بل أنفقوا على إيجاد مصادر للمياه في مكة من العيون والآبار وتوصيلها إلى المسجد الحرام . فعندما تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة أجرى في مكة عشرة عيون^(٢٠٧) . كما حفر الوليد بن عبد الملك بئراً بمكة وكان مأوها ينقل إلى المسجد الحرام^(٢٠٨) .

والجدير بالذكر أن فريضة الحج كانت مناسبة يستغلها الخلفاء الأمويون لكي يعنوا بإيصال المياه العذبة إلى المسجد الحرام . فعندما أراد الخليفة سليمان بن عبد الملك الحج كتب إلى عامله على مكة خالد بن عبد الله القسري^(٢٠٩) ، يأمره أن يجري له عيناً من الماء العذب ، فبنى خالد بركة وأجرها إلى المسجد الحرام^(٢١٠) .

ولم يقتصر إهتمام الأمويين على توفير المياه في مكة ، بل شمل أيضاً المدينة ، فقد اعتنى الخليفة الوليد بن عبد الملك بحفر الآبار بالمدينة وإيجاد ينابيع للماء ، وكتب إلى عامله على المدينة عمر بن عبدالعزيز يأمره بعمل ذلك . وعندما حج شاهد فواره أجرها عمر فأعجبته ، وأمر بأن يقوم على أمرها من يصونها وأن يُسقى منها أهل المسجد^(٢١١) . ولا شك أن إهتمام الخلفاء الأمويين بسقاية الحاج وتوفير المياه في مكة والمدينة ، كان راجعاً للحاجة إلى المياه وخصوصاً في مواسم الحج ، حيث يتوافد الآلاف من الحجاج ، وبالتالي يزداد الطلب على الماء القليلة مصادره . ولا تخلو المصادر من إشارات إلى شح المياه وارتفاع أسعارها وخصوصاً في مكة خلال مواسم الحج . فالطبري يروي أن

(٢٠٤) عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك : هو والي المدينة في عهد مروان بن محمد (١٢٧ - ١٣٢هـ) ، آخر خلفاء بني أمية . **اليقوي** ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٣٣٩ .

(٢٠٥) الدهليز : هو المكان الذي يوجد بين الباب والدار . انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٥ ، ص ٣٤٩ .

(٢٠٦) الأزرق ، أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ . **السيف** ، الحياة الاقتصادية ، ص ٢٩٤ .

(٢٠٧) الأزرق ، أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ٢٢٧ - ٢٣٠ . انظر أيضاً :

W. Montgomery Watt, «Makka», Encyclopedia of Islam, New ed., Vo. 6, Leiden, Brill, London:

Luzac, 1971, p. 38

(٢٠٨) الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٢٢ ، ص ١٨ .

(٢٠٩) انظر ترجمة خالد بن عبد الله القسري عند ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٥ ، ص ٧٠ - ٨٣ .

(٢١٠) **اليقوي** ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٩٣ . انظر أيضاً : **الفاكهي** ، أخبار مكة ، ج ٣ ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .

ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٥ ، ص ٨٢ .

(٢١١) **الطبري** ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٤٣٧ .

عمر بن عبدالعزيز عندما حج سنة ٨٨هـ ، وهو أمير على المدينة ، قابله في الطريق مجموعة من قريش ، فأخبروه أن مكة قليلة الماء ، وأنهم يخافون على الحاج من العطش لقلة الأمطار^(٢١٢) . كما يذكر الفاكهي أيضًا أن أهل مكة كانوا يعانون من قلة المياه معاناة شديدة ، إذ «كانت الرواية تبلغ في الموسم عشرين درهماً أو أكثر ، وفي سائر السنة نصف دينار ، وثلاث دينار ، ونحو ذلك...»^(٢١٣) .

وبالإضافة إلى شح المياه وقلة الأمطار ، فقد كانت مكة تعاني أحياناً من السيول الجارفة في بعض مواسم الحج ، مما كان لها أثره الكبير في تدهور التجارة ، ونتائج سيئة على الأسواق . وتشير المصادر إلى العديد من السيول التي أصابت مكة^(٢١٤) ، ولكن أشد هذه السيول دماراً للأسواق وترويعاً للحجاج كان سيل الجحاف^(٢١٥) ، الذي صبح الحجيج يوم التروية في موسم حج عام ٨٠هـ ، فذهب بمتاع الناس ومالهم ، وهدم الدور وقتل الهدم ناساً كثيراً ، حتى إن الناس تسلقوا الجبال وفروا إلى الشعاب للنجاة بأرواحهم^(٢١٦) . ويروي الطبري عن شاهد عيان وصفاً معبراً لهذا السيل وأثره ، إذ يقول : «جاء السيل حتى ذهب بالحجاج بيطن مكة ، فسمي لذلك عام الجحاف ، ولقد رأيت الإبل عليها الحمولة والرجال والنساء تمر بهم ما لأحد فيهم حيلة...»^(٢١٧) .

ومن ناحية أخرى ، فقد ساهم بعض الخلفاء الأمويين في فك الضيق والعوز الذي يعانيه بعض حجاج بيت الله الحرام ، وذلك بسبب ما يتكبدونه من مشاق مالية خلال توجههم إلى مكة ، ومصاعب في إيجاد المأوى لإقامتهم ، وقد تمثل ذلك في الإنفاق المالي عليهم ، وتوفير السكن الملائم لإقامتهم . ولا شك أن عناية الأمويين بهذه النواحي ليدل دلالة واضحة على التضامن والتكافل الاجتماعي الذي كانت توليه الدولة الأموية لحجاج بيت الله الحرام . وليس أدل على ذلك من أن بيت

(٢١٢) المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٤٣٧ - ٤٣٨ .

(٢١٣) الفاكهي ، أخبار مكة ، ج ٣ ، ص ١٥٢ . السيف ، الحياة الاقتصادية ، ص ١٣٠ .

(٢١٤) أهم هذه السيول هي : سيل الجحاف ، والنخل ، وأبي شاعر ، وحول هذه السيول وأثرها . انظر :

البلاذري ، فوح البلدان ، ص ٦٥ - ٦٦ . الطبري ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٣٢٥ الفاكهي ، أخبار

مكة ، ج ٣ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ . الأزرق ، أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ١٦٨ . انظر أيضاً : أحمد سعيد

حديد ، «السيول في منطقة مكة المكرمة» ، المجلة التاريخية ، عدد ٣ ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

(٢١٥) سمي الجحاف لأنه يجرف كل شيء ويذهب به . انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٩ ، ص ٢١ .

(٢١٦) البلاذري ، فوح البلدان ، ص ٦٥ . الفاكهي ، أخبار مكة ، ج ٣ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ . الأزرق ،

أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ١٦٨ . ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٣٥٧ . الذهبي ، تاريخ الإسلام (٦١ -

٨٠هـ) ، ص ٣٤٢ .

(٢١٧) الطبري ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٣٥٥ .

مال المسلمين ، وهو من أهم مؤسسات الدولة ، كان يقوم بالصرف على المسلمين ، وذلك بإقراض ذوي الحاجة وإعطاء العجزة والمساكين ما يكفيهم عن سؤال الناس^(٢١٨) . ويتضح إنفاق الأمويين بأبرز صورة في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز (ت ١٠١هـ) فقد كتب إلى عامله على اليمن يأمره بأن يعزل مائة ألف دينار من بيت مال اليمن وأن يقدمها إلى بعض الرجال ويأمرهم أن يقابلوا الحجاج في الطرق إلى مكة ليكسوهم ويحملوهم^(٢١٩) . وفي كتاب آخر إلى عماله ، أمرهم الخليفة عمر بن عبدالعزيز أن يعجلوا عطاء من أراد الحج لكي يستعد ويتجهز لحجه^(٢٢٠) . أما توفير السكن والإقامة للحجاج فقد عني بذلك بعض الأمويين . فعندما قدم إلى مكة عمر بن عبدالعزيز ، وهو والي الحج في خلافة سليمان بن عبد الملك ، تصدق بدار على الحجاج والمعتمرين وأسكنهم إياها ، واستمرت تلك الدار نزلاً للحجاج إلى نهاية الدولة الأموية^(٢٢١) . كما اشترت رملة بنت عبد الله بن عبد الملك بن مروان في عهد الخليفة مروان بن محمد داراً في مكة وتصدقت بها على الحجاج والمعتمرين الذين كانوا يسكنونه إلى نهاية خلافة بني أمية^(٢٢٢) .

العناية بالحجيج وقوافلهم

لقد اهتم الأمويون بسلامة الحجيج وقوافلهم ، وتمثل ذلك في تأمين طرق الحج وجعلها سالكة ، وفي إقامة الحدود على اللصوص وقطاع الطرق ، ولهذا كان الولاة الأمويون يتعقبون اللصوص وقطاع الطرق - الذين كانوا يغيرون على الحجيج وقوافلهم - وينزلون بهم أشد العقاب . فعندما عُيِّن سعيد بن عثمان والياً على خراسان سنة ٥٦هـ ، قام بالقبض على بعض الأعراب من تميم ، الذين كانوا يقطعون الطريق على الحجاج ببطن فلج^(٢٢٣) . والجدير بالذكر أن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان كان يهتم شخصياً بسلامة الحجيج وتأمين طرقهم ، ومما يدل على ذلك موقفه الحازم حينما أغار مجموعة من قطاع الطرق على أحد الحجاج وقتلوه ، وهو في طريقه إلى الحج ، إذ

(٢١٨) انظر : صالح محمد فياض أبو دياك ، « السياسة المالية للدولة الأموية » ، مجلة الباحث ، السنة العاشرة ،

عدد ٥١ ، بيروت ، ١٩٨٨ ، ص ١٤ .

(٢١٩) الفاكهي ، أخبار مكة ، ج ١ ، ص ٤١٤ .

(٢٢٠) اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٣٠٥ .

(٢٢١) الأزرق ، أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ٢٤١ . الفاكهي ، أخبار مكة ، ج ٣ ، ص ٣٩١ .

(٢٢٢) الأزرق ، أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ .

(٢٢٣) الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٣٠٥ - ٣٠٦ . حسين عطوان ، الشعراء الصعاليك في العصر الأموي ،

القاهرة : دار المعارف ، د.ت ، ص ٩٩ . وبطن فلج هو واد يسلك من طريق البصرة إلى النجاة ومنها إلى

مكة ، وفلج اسم للبلد على هذا الوادي . انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٧٢ .

طلبهم الخليفة عبد الملك بن مروان أشد الطلب ، وكتب إلى عامله على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي^(٢٢٤) ، وعماله الآخرين على بعض المدن ، يلح عليهم بالبحث عن هؤلاء القتلة ، وأن يجعلوا لمن يدل عليهم مكافأة ضخمة ، حتى تم القبض عليهم والقصاص منهم^(٢٢٥) .

وكان تشدد الخلفاء والولاة الأمويين في تأمين سلامة الحجيج وقوافلهم يهدف إلى تدعيم سلطة الدولة الأموية وإظهار هيبتها ، وإحلال الأمن والسلام اللازمين لتأدية هذه الفريضة ، خصوصاً وأن الإسلام أجاز للحاج أن لا يقدم للحج إذا كان طريق الحج غير آمن^(٢٢٦) .

ومن جهة أخرى ، اهتم الخلفاء الأمويون بسلامة الحجيج عند مغادرتهم لمكة بعد إنقضاء موسم الحج ، فقد كتب الخليفة عمر بن عبدالعزيز إلى عامله على مكة يأمره بأن يوقد النار ويضع المصابيح في طرقات مكة للحجاج عند رحيلهم ، وأن يحرسوهم مخافة أن يتعرضوا للسرقة^(٢٢٧) . ولا شك أن هؤلاء الحجاج كانوا يغادرون مكة وهم محملون بالأمثلة والسلع مما اشتروه من الأسواق العامة خلال مواسم الحج ، ولذلك كانوا يتعرضون لهجمات اللصوص وقطاع الطرق^(٢٢٨) . وبالإضافة إلى تأمين قوافل الحجيج القادمة والمغادرة لمكة ، فقد أقام الأمويون الحدود على اللصوص خلال مواسم الحج . فعندما حج مسلمة بن عبد الملك^(٢٢٩) وشهد الموسم أقام الحد على سارق سرق

(٢٢٤) اتبع الحجاج بن يوسف الثقفي سياسة حازمة تجاه اللصوص وقطاع الطرق . وتعكس أبيات للشاعر الأموي جرير (ت ١١٠هـ) دور الحجاج بن يوسف في تأمين أمتعة الحجيج من السرقة والنهب حيث يقول مادحاً الحجاج :

منع الرشاء وأراكم سبل الهدى والصلص نكله عن الأدلاج
ولقد كسرت سنن كل منافق ولقد منعت حقائب الحجاج
انظر : جرير بن عطية الخطفي ، شرح ديوان جرير ، ت. ايليا حاوي ، ط ١ ، بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٢ ، ص ص ١١١ - ١١٢

(٢٢٥) الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٢١ ، ص ص ٢٣٣ - ٢٢٨ . عطوان ، الشعراء الصعاليك ، ص ص ٥٩ ، ٨٢ .

(٢٢٦) ابن تيمية ، شرح العمدية ، ج ١ ، ص ١٥٧ . انظر هنا أيضاً رأي مالك فيمن منع أو حُصر عن الحج بعدو . الأصبحي ، الموطأ ، ج ١ ، ص ٣٦٠ .

(٢٢٧) الفاكهي ، أخبار مكة ، ج ٣ ، ص ص ١١٥ - ١١٦ . الأزرق ، أخبار مكة ، ج ١ ، ص ٢٨٧ . ج ٢ ، ص ١٧٢ .

(٢٢٨) كانت القوافل في الطريق بين الحجاز والشام تتعرض للسرقة . انظر : الأصفهاني ، الأغاني ، ج ١٢ ، ص ١٧١ . عطوان : الشعراء الصعاليك ، ص ٩٩ .

(٢٢٩) مسلمة بن عبد الملك : هو ابن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، شارك في حرب الثغور كما غزا الروم ، وقد توفي سنة ١٢٠هـ . انظر : الذهبي ، تاريخ الإسلام (١٠١ - ١٢٠هـ) ، ص ص ٤٦٨ - ٤٧٠ .

ناقة لعبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب (٢٣٠) بما عليها من سرج ومتاع (٢٣١) .

وأخيراً ، فقد كان الأمويون يهدفون بسياساتهم الحازمة تجاه اللصوص وقطاع الطرق إلى تأمين سلامة الحجيج واستمرار قوافلهم القادمة والمغادرة لمكة . كما كانوا يقصدون إشاعة الأمن والاستقرار في ربوع الدولة الإسلامية ، مما يترتب عليه توافد الحجاج بأعداد كبيرة إلى مكة ، واستمرار للقوافل التجارية ، وبالتالي إنتعاش الحياة الاقتصادية في مواسم الحج .

خاتمة

وهكذا ، لم تكن فريضة الحج زهداً وتنسكاً مخضناً ، بل راعى الإسلام في تأدية هذه الفريضة أحوال المسلمين المعاشية ومصالحهم ، بل ومنافعهم الدنيوية . وبهذا كان الإسلام واقعياً في نظره لأحوال المسلمين عندما أباح التجارة لهم وهم يؤدون هذه الفريضة ما لم تشغلهم عن القيام بمناسك الحج . ولا شك أن وجود الآلاف من الحجاج سنوياً في مواسم الحج كان لابد أن يصحبه إنتعاش إقتصادي ، تجاري ومالي ، فالتجارة والأجار والمهن والحرف وغيرها من الأنشطة الاقتصادية كان وجودها حتمياً لأنها حاجات إنسانية تشبع متطلبات الإنسان ولا بد أن تتم في أي تجمع بشري . وقد ترتب على فريضة الحج تغيرات كبيرة في وضع الأسواق ، فقد تضاعل دور الأسواق القديمة إلى أن تلاشت نهائياً ، وظهرت أسواق جديدة سواء ما كان منها مؤقتاً وينتهي بانتهاء موسم الحج كمنى و عرفة والمواقيت الجديدة التي حددها الإسلام ، أو ما كان منها دائماً وعلى مدار السنة كأسواق مكة والمدينة ، التي تقصد ليس للحج فقط ، بل أيضاً للعمرة والزيارة . واكتسبت موانئ الحجاز أهمية اقتصادية كجدة والجار ، لكونها محطات لاستقبال الحجاج القادمين عن طريق البحر ، وفي نفس الوقت موانئ لاستقبال السلع الغذائية والتي يزداد الطلب عليها في مواسم الحج .

وإذا كانت الظروف الطبيعية من مناخية وجغرافية قد أسهمت في فقر الحجاز وقلة موارده المتاحة لأهاليه ، فقد كان لمواسم الحج دور في إمداد الحجاز ، وخصوصاً مدينتي مكة والمدينة ، بالمؤن الغذائية والسيولة النقدية التي كانت تقدم مع الحجاج والتجار . والواقع ، وكما رأينا ، فإن مواسم الحج قد أوجدت لأهالي الحجاز دخولا مالية سنوية وثابتة كانت تتوفر عن طريق تأجيرهم للدور والحوانيت وبيعهم للعقار ، بالإضافة إلى تكسبهم بالتجارة خلال أشهر الحج .

(٢٣٠) عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب : ثقة ، قليل الحديث ، من أهل المدينة ، توفي سنة ١٠٥ هـ . انظر :

الذهبي ، تاريخ الإسلام (١٠١ - ١٢٠ هـ) ، ص ١٥٩ .

(٢٣١) الفاكهي ، أخبار مكة ، ج ٣ ، ص ٣٦٤ .

إذن ، فعلى الرغم من تضائل دور الحجاز سياسياً في العصر الأموي ، وذلك لانتقال مركز الخلافة إلى الشام ، فقد كان للعامل الديني المتمثل في فريضة الحج دور اقتصادي على الحجاز ، فقد بقي مهماً تجارياً ومالياً وذلك لمركزه الديني وكونه ملتقى لآلاف من الحجاج ، ومقصداً للمسلمين من شتى بقاع الأرض . هذا ، وقد تمثلت أهمية الحجاز الاقتصادية بأوضح صورها في مواسم الحج . وأخيراً ، لعل هذه الدراسة تفتح أبواباً جديدة لدراسات أخرى ومتنوعة عن مظاهر الحج في العصر الأموي ، وفي ذلك إثراء لمعرفتنا بتلك الفترة المهمة من التاريخ الإسلامي .

المراجع

أولاً : المراجع العربية

- الأبشيبي ، شهاب الدين بن محمد ، المستطرف في كل فن مستظرف ، ت. عبدالله انيس الطباع ، بيروت : دار القلم ، ١٩٨١ .
- ابن الأثير ، علي بن محمد بن عبدالكريم الجزري ، الكامل في التاريخ ، بيروت : دار الفكر ، ١٩٧٨ .
- الأزرق ، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد ، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، ت. رشدي ملحس ، ط ٣ ، مكة المكرمة : مطابع دار الثقافة ، ١٩٨٨ .
- الأصبحي ، مالك بن أنس ، الموطأ ، ت. محمد فؤاد عبدالباقي ، بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٩٨٥ .
- _____ المدونة الكبرى ، بيروت : دار صادر ، د.ت .
- الأصبهاني ، أبو نعيم أحمد بن عبدالله ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ط ٥ ، بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٩٨٧ .
- الأصطخري ، إبراهيم بن محمد ، مسالك الممالك ، ت. دي غويه ، ط ٢ ، لندن ، بريل ، ١٩٢٧ .
- الأصفهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين ، كتاب الأغاني ، بيروت : مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، د.ت .
- البغداد ، عبدالقاهر بن طاهر ، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم ، ط ٣ ، بيروت : دار الآفاق الجديدة ، ١٩٧٨ .
- بكر ، سيد عبدالمجيد ، الملاحم الجغرافية لدروب الحجيج ، ط ١ ، جدة : تهامة ، ١٩٨١ .
- البلاذري ، أحمد بن يحيى بن جابر ، أنساب الأشراف ، بغداد : مكتبة المثنى ، د.ت .
- _____ أنساب الأشراف ، ت. ماكس سكلو سنجر ، القدس ، ١٩٣٨ .
- _____ فتوح البلدان ، ت. رضوان محمد رضوان ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٧٨ .
- ابن تيمية ، أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام ، شرح العمدة في بيان مناسك الحج والعمرة ، ت. صالح بن محمد الحسن ، ط ١ ، الرياض : مكتبة الحرمين ، ١٩٨٨ .
- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، رسائل الجاحظ ، ت. عبدالسلام هارون ، القاهرة : مكتبة الخانجي ، د.ت .
- الجاسر ، حمد ، « حول الجار والشعبية » ، مجلة العرب ، ملحق ج ١٢ ، ١٩٧٠ .

الجزيري ، عبد القادر بن محمد عبد القادر ، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، ت. حمد الجاسر ، الرياض : دار اليمامة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

الجنحاني ، الحبيب ، دراسات في التاريخ الاقتصادي الاجتماعي للمغرب الإسلامي ، ط ٢ ، بيروت : دار المغرب الإسلامي ، ١٩٨٦ .

ابن الجوزي ، جمال الدين أبي الفرج ، صفة الصفوة ، ت. محمود فاحوري ، ط ٤ ، بيروت : دار المعرفة ، ١٩٨٦ .

ابن حبيب ، علي بن جعفر بن محمد ، المحبر ، ت. ايلزة يتختن ستر ، بيروت : المكتبة التجارية للطباعة والنشر ، د.ت .

ابن حجر العسقلاني ، أحمد بن علي ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، بيروت : دار المعرفة . د.ت .
 حديد ، أحمد سعيد ، « السيول في منطقة مكة المكرمة » المجلة التاريخية ، عدد ٣ ، القاهرة ، ١٩٧٤ .
 الحرابي ، إبراهيم بن إسحاق ، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة ، ت. حمد الجاسر ، ط ٢ ، الرياض : منشورات دار اليمامة ، ١٩٨١ .

الحموي ، ياقوت بن عبدالله ، معجم البلدان ، بيروت : دار صادر ، ١٩٧٧ .
 الحروبوطي ، علي حسني ، تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي : السياسي ، الاجتماعي ، الاقتصادي ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٩ .

_____ الحضارة العربية الإسلامية ، القاهرة : مكتبة الخانجي ، د.ت .

ابن خرداذبه ، عبيد الله بن عبدالله ، المسالك والممالك ، ت. دي غويه ، لندن ، بريل ، ١٩٨٩ .
 الخطفي ، جرير بن عبدالله ، شرح ديوان جرير ، ت. ايليا حاوي ، ط ١ ، بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٢ .
 ابن أبي الدنيا ، عبدالله بن محمد بن عبيد ، إصلاح المال ، ت. مصطفى مفلح القضاة ، ط ١ ، المنصورة : دار الوفاء للطباعة والنشر ، ١٩٩٠ .

_____ كتاب الأخوان ، ت. محمد عبدالرحمن طواليه ، القاهرة : دار الاعتصام . د.ت .
 الدوري ، عبد العزيز ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ط ٢ ، بيروت : دار الطليعة ، ١٩٨٠ .
 أبو دياك ، صالح محمد فياض ، « السياسة المالية للدولة الأموية » ، مجلة الباحث ، السنة العاشرة ، عدد ٥١ ، بيروت ، ١٩٨٨ .

الدينوري ، أبي حنيفة بن داود ، الأخبار الطوال ، بيروت : دار الفكر الحديث ، ١٩٨٨ .
 الذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، ت. عمر عبدالسلام تدمري ، ط ١ ، بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٩٨٨ .

الزبيدي ، محمد حسين ، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الأول الهجري ، بغداد : د.ن . ١٩٧٠ .
 الزنجشيري ، محمود بن عمر ، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل . ت. مصطفى حسين أحمد ، ط ٣ ، القاهرة : دار الريان للتراث ، ١٩٨٧ .

الزهراي ، ضيف الله ، « نفقات عمارة الكعبة المشرفة في صدر الإسلام حتى نهاية العهد العثماني » ، مجلة بحوث تاريخية ، ط ١ ، الجمعية التاريخية السعودية ، الرياض ، ١٤١١هـ ، عدد ١ .
 صابق ، السيد ، فقه السنة ، بيروت : دار الكتاب العربي ، د.ت .

- السجستاني ، أبو داود سليمان بن الأشعث ، سنن أبي داود ، ط ١ ، حمص : دار الحديث ، ١٩٧٠ .
- ابن سعد ، محمد بن سعد بن منيع البصري ، الطبقات الكبرى ، بيروت : دار صادر ، د.ت .
- ابن سلام ، أبي عبيد القاسم ، كتاب الأموال ، ت. محمد خليل هراس ، ط ٣ ، القاهرة : دار الفكر ، ١٩٨١ .
- السيف ، عبدالله بن محمد ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي ، ط ٣ ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٣ .
- ابن شبه ، أبو زيد عمر ، تاريخ المدينة المنورة ، ت. فهم محمد شلتوت ، القاهرة : مكتبة ابن تيمية ، د.ت .
- شراب ، محمد حسن ، المدينة في العصر الأموي ، ط ١ ، دمشق : مؤسسة علوم القرآن ، ١٩٨٤ .
- الشريف ، أحمد إبراهيم ، دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة ، القاهرة : دار الفكر العربي ، د.ت .
- آل الشيخ ، نورة بنت عبدالملك بن إبراهيم ، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في صدر الإسلام ، ط ١ ، (رسالة ماجستير منشورة) . جدة : تهامة ، ١٩٨٣ .
- صقر ، نادية حسني ، الطائف في العصر الجاهلي وصدر الإسلام ، ط ١ ، جدة : دار الشروق ، ١٩٨١ .
- الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، بيروت : دار الفكر ، ١٩٨٨ .
- _____ تاريخ الرسل والملوك ، ت. محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ٤ ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٩ .
- الطبري ، أحمد بن عبدالله بن محمد بن أبي بكر ، القرى لقاصد أم القرى ، ت. مصطفى السقا ، ط ٣ ، القاهرة : دار الفكر ، ١٩٨٣ .
- عبد الباقي ، فؤاد ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، اسطنبول : المكتبة الإسلامية ، ١٩٨٤ .
- ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد ، العقد الفريد ، ت. عبد الحميد الترخبني ، ط ٣ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٧ .
- العبيدي ، صلاح حسين ، « المنسوجات والملابس في الجزيرة العربية والخليج العربي في القرنين الأول والثاني الهجري » . مجلة المؤرخ العربي ، سنة ١٦ ، عدد ٤٣ ، بغداد ، ص ص ١٨٥ - ١٨٨ .
- العبيدي ، عبد الجبار منسي ، الطائف ودور قبيلة ثقيف العربية ، ط ١ ، الرياض : دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع ، ١٩٨٢ .
- عتر ، نور الدين ، الحج والعمرة في الفقه الإسلامي ، حلب : المكتبة العربية ، ١٩٦٩ .
- ابن عساكر ، أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله ، تهذيب تاريخ دمشق الكبير ، ط ٢ ، بيروت : دار المسيرة ، ١٩٧٩ .
- العسكري ، الحسين بن عبدالله بن سهل ، الأوائل ، ط ١ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٧ .
- العصفري ، خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة بن خياط ، ت. أكرم ضياء العمري ، ط ١ ، الرياض : دار طيبة ، ١٩٨٥ .
- عطوان ، حسين ، الفرق الإسلامية في بلاد الشام في العصر الأموي ، ط ١ ، د.م : دار الجيل ، ١٩٨٦ .
- العقيلي ، عمر سليمان ، يزيد بن معاوية : حياته وعصره ، الرياض : د.ن ، ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م .
- علي ، جواد ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط ٢ ، بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٨ .
- العلي ، صالح أحمد ، « الأنسجة في القرنين الأول والثاني » ، مجلة الأبحاث ، ط ٤ ، سنة ١٤ ، بيروت : دار الكاتب اللبناني ، ١٩٦١ .

« الألبسة في القرن الأول الهجري » ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد ١٣ ، بغداد ، ١٩٦٦ .
 العدد ، إحسان صديقي ، الحجاج بن يوسف الثقفي ، حياته وآراؤه السياسية ، ط ٢ ، بيروت : دار الثقافة ، ١٩٨١ .

عنقاوي ، عبدالله بن عقيل ، « كسوة الكعبة في العصر المملوكي » ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جدة : مركز النشر العلمي ، ١٩٨٥ ، مجلد ٥ .

الفاقي ، أبو الطيب محمد بن أحمد الحسني ، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، القاهرة : مطبعة السنة المحمدية ، د.ت .

الفاكهي ، أبو عبدالله محمد بن إسحاق بن العباس ، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه ، ت. عبد الملك بن عبدالله بن دهيش ، ط ١ ، مكة المكرمة : مكتبة و مطبعة النهضة الحديثة ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

ابن فرحون ، برهان الدين إبراهيم ، أرشاد السالك إلى أفعال المسالك ، ت. محمد بن الهادي أبو الأجناف ، قرطاج : بيت الحكمة ، ١٩٨٩ .

ابن قتيبة ، عبدالله بن مسلم ، عيون الأخبار ، بيروت : دار الكتاب العربي ، د.ت .

المعارف ، ت. ثروت عكاشة ، ط ٤ ، القاهرة : دار المعارف ، د.ت .

القرطبي ، أبو عبدالله محمد بن أحمد ، الجامع لأحكام القرآن ، ط ٤ ، د.م : دار الكاتب العربي ، ١٩٦٧ .

ابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل ، الفصول في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ت. محمد العيد الخطراوي ومحيي الدين مستو ، ط ٣ ، دمشق : مؤسسة علوم القرآن ، د.ت .

ماجد ، عبدالمنعم ، التاريخ السياسي للدولة العربية : عصر الخلفاء الأمويين ، ط ٤ ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧١ .

مالك ، سليمان عبدالغني ، « طريق ركب الحج العراقي من الكوفة إلى مكة من الفتح الإسلامي حتى سقوط بغداد . مجلة الدارة ، سنة ٩ ، عدد ٢ ، الرياض ، دار الملك عبدالعزيز ، محرم ١٤٠٤هـ/ أكتوبر ١٩٨٣م .

« طريق حجاج الشام ومصر منذ الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن السابع الهجري » ، مجلة الدارة ، سنة ١٠ ، عدد ١ ، الرياض ، دار الملك عبدالعزيز ، شوال ١٤٠٤هـ/ يونيو ١٩٨٤م .

المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد ، الكامل في اللغة والأدب ، بيروت : مؤسسة المعارف ، د.ت .

المقدسي ، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ت. دي غويه ، ط ٢ ، لندن ، بريل ، ١٩٠٦ .

ابن منظور ، أبو الفضل محمد بن مكرم ، لسان العرب ، بيروت : دار الفكر ودار صادر ، د.ت .

مجلة الإمامة ، عدد ١١٦١ ، الرياض ، ١٩٩١م .

النووي ، يحيى بن شرف الدين ، صحيح مسلم ، ط ١ ، بيروت : دار إحياء التراث ، د.ت .

نوفل ، عبدالرزاق ، فريضة الحج ، ط ١ ، القاهرة : دار الشروق ، ١٩٨٣ .

ابن هشام ، أبو محمد عبدالملك ، السيرة النبوية ، ت. مصطفى السقا ، إبراهيم الأبياري ، وعبدالحفيظ شليبي ، بيروت : دار إحياء التراث ، د.ت .

اليعقوبي ، أحمد بن جعفر بن واضح ، تاريخ اليعقوبي ، بيروت : دار صادر ، د.ت .

كتاب البلدان ، ت. دي غويه ، ط ٢ ، لندن ، بريل ، ١٨٩٢ .

ثانيا : المراجع الأجنبية

- Dixon, 'Abd al-Ameer 'Abd,** *The Umayyad Caliphate: 65-86/684-705 (A Political Study)*, London, Luzac, 1971.
- Kister, M.J.,** *The Battle of the Harra: Some Socio-Economic Aspects, Study in Memory of Guston Wiet*, Ed. by Miriam-Rosen-Ayalon, Jerusalem, 1977, pp. 93-129.
- Lammens, P.H.,** *La Cite Arabe de Taif a La Veille de L'Hegire*, Paris, 1922.
- Lane, E.W.,** *Arabic-English Lexicon*, Cambridge, The Islamic Texts Society Trust, 1984.
- Lewis, B.,** Hadjdj, *Encyclopedia of Islam*, New ed., Leiden, Brill, London, Luzac, Vol. 3, pp. 31-38.
- Perier, J.,** *Vie d'al-Hadjdjādj Ibn Yoūsof*, Paris, n.p., 1904.
- Watt, W. Montgomery,** Makkah, *Encyclopedia of Islam*, New ed., Leiden, Brill, London, Luzac, Vol. 6, pp. 144-187.
- Record of the Hajj: A Documentary History of Pilgrimage to Mecca*, Archive ed., British Library, Printed by Antony Rowe Ltd., Chippenham, 1993, Vol. 2.

Aspects of Economic Activity During The Pilgrimage Seasons in The Ummayyad Period (41-132 A.H. / 661-750 A.D.)

IBRAHIM ABD AL-AZIZ AL-JOMAIH

*Assistant Professor, Department of History,
Faculty of Arts and Humanities, King Abdulaziz University,
Jeddah, Saudi Arabia*

ABSTRACT. What were the effects of allowing Muslims to trade during Pilgrimage? And when has it been allowed? And what were the common and widespread merchandise that were presented in the markets during the Pilgrimage seasons? And how did the markets, by their diverse and multiple aspects represent the commercial activity? And what goods were shown in these markets? Were there new markets after Islam? And what happened to the old markets? And what was the role of the Pilgrimage on the conditions of the new and the old markets?

Then, what were the professions and crafts that prevailed during the Pilgrimage seasons? And did the Pilgrimage play a role in their revival? How did the Pilgrimage duty establish new forms of financial dealings between Muslims. And what about the position of real estate during the Pilgrimage seasons?

Finally, what was the role of the Ummayyads in the growth of economic life? And in what activities was their role prevalent?

This study is an attempt to answer the aforementioned questions by shedding light on the economic activities – in both commerce and finance – which occurred during the Pilgrimage seasons in the Ummayyad period.